وصية لقمان

فوائد وعبر

فضيلة الشيخ

الدكتور ياسر برهامي

توزيع

دار الخلفاء الراشدين

دار الفتح الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

وصية لقمان فوائد وعبر
الدكتور/ ياسر برهامي
١٧×١٢ سم
١١٢ صفحة
مجلد واحد
١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م
الأولى

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين
الإدارة: ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعةٌ ضلالةٌ، وكل ضلالةٌ في النار، ثم أما بعد:

فإن من أهم ما يواجه العمل الإسلامي، والأمة الإسلامية، مسألة تنشئة أبنائها ونسائها ورجالها على دين الله ﷻ، وتهيئتهم علمًا وعملًا ودعوةً، وهو ما اصطلح عليه المعاصرون بما يسمى: التربية.

وقضية التربية عظيمة الأهمية في حياة الفرد والأمة، ومن أهميتها: أن الله ذكر وصية رجل حكيم، وخلد اسمه في كتابه،

وهو رجل –عند جمهور العلماء– ليس بنبي؛ إذ لم يُذكر اسمه مع الأنبياء في أي مرة ذُكروا فيها، لكن الله ذكر وصيتَه في كتابه لتكون أسوةٌ –للآباء والأمهات والأساتذة والمعلمين، ولكل من ولَّاه الله أمرَ غيره من المسلمين– في التهيئة والإعداد والتنشئة على مرضاة الله Ü .

وفي نفس الوقت، فالخطر من المناهج المنحرفة في التربية، والتي وضعها أعداء الإسلام، والتي ترمي إلى تدمير الأمة، من خلال تدمير أبنائها، وإعداد طائفة تتكلم بألسنتنا، ومن جِلدَتِنَا، وفي باطنها قلوب الشياطين، أعداء للإسلام والمسلمين، يُرَبَّوْنَ ويُعَلَّمُونَ من أجل أن يَتَوَلَّوْا أهمَّ المراتب والمواضع في قيادة الأمة، ثم يقودونها إلى مَهْلَكِهَا. وأعداء الإسلام قد وضعوا مناهج تعليم، ومناهج إعلام، ومناهج اقتصادية متعددة، تفرض على الناس نمطًا معينًا من الحياة، والذي يترتب عليه نشوء أجيالٍ لا تعرف شيئًا عن دينها، بل تعرف ما يُضَادُّه، ويخالفه وتتقبَّله وترتضيه.

وآخر الأمثلة شيوعًا: قصة ذلك الكِتاب الذي يُدَرَّسُ في الجامعة الأمريكية عبر سنوات، ثم هو يَسُبُّ

النبيَّ ﷺ، ويطعن في القرآن طعنًا هو أقبح من طعن المستشرقين الحاقدين، ويكذب ويزوِّر أكثر مما يفعلون، وهو أشد منهم حقدًا وحسدًا على الإسلام والمسلمين؛ لذا فُرِضَ على هؤلاء الأبناء الذين يسمُّونهم بـ (أبناء الصفوة) أن يحفظوه ويلخِّصوه، ثم يُمْتَحَنُوا فيه، ويُجِيبُوا بما يُرِيدُه الأستاذُ الذي يطعن في الإسلام صراحةً! لذلك فإنَّ هذه الأجيال التي دخلت ثم خرجت، كان أمرًا طبيعيًا أن تجد منهم من يحارب القرآن والسُّنَّة، ويعتبر أنها أمراضٌ نفسيَّةٌ وعُقَدٌ ونحو ذلك، مما يتقيَّؤه هذا المستشرق عليهم.

وإذا نظرنا في قصة أصحاب الأخدود، نرى الساحر الذي كان يعلِّم الناس أنَّ المَلِكَ هو ربُّهم، وأنه لا رب لهم غيره، وقد كَبِرَ ذلك الساحر، ولكنه حريص على استمرار الشَّرِّ مِن بعده، فقال له: «**ابعث إليَّ غلامًا أُعَلِّمه السِّحْرَ**»، فبعث إليه غلامًا فطنًا. وكان هناك توجيهٌ آخر للغلام مِن الراهب الذي كان منعزلًا عن الناس، موحِّدًا لربه ﷻ، فكان يلقِّن الغلامَ العقيدةَ الصحيحة: أنه لا رب له إلا الله، وكان الساحر يعلِّمه

أنَّ ربـه المَلِك. فتغيرت بهذا الغلام أُمَّةٌ من الأمم ونَجَتْ به من النار، وتغير منهاج حياتهم، حتى ضَحَّوْا بأنفسهم في سبيل الله.

فربمـا يـؤدي إحسـانُ التربية إلى نجـاة أُمة، والفشـل فيها يؤدِّي إلى دمارها.

لذا كان لابد لنا أن نهتم بهذه المسألة جيداً، فهي فرضُ عَيْنٍ علـى كثير من الأشـخاص، ممـن عندهم أبنـاء وبنات، يجب عليهـم أن يعلِّموهـم، كما قـال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فهـذا الأمر للوجوب، يجـب علينا أن نَقِيَ أنفسَـنا وأهلينا مـن النار التي وقودها النـاس والحجارة، ولن يتحقق ذلك إلا بفهمنا، وعلمنـا، ودعوتنا لما تضمنَّته آياتُ الكتابِ وأحاديثُ النبي ﷺ.

وهـذا الباب عظيم الأهمية، ولا نجد أجمع لأصول التربية مـن وصيـة لقمان لابنـه وهـو يعظه، فهـي تحوي أصـولًا في التربية الإيمانية والعلمية والخُلُقية وفي العبادات والمعاملات والدعوة إلى الله؛ وحول معانيها نسير، ونرجو من الله أن يوفقنا

إلى أن نتنفع بها علمًا وعملًا.

وهذه الوصية ليسـت خاصة بالصغار، فالنبي ﷺ بدأ تربية أُمتـه وكثير منهم قد جاوز الصِّغَرَ، وصـاروا خيرَ أُمة أُخرجت للناس، ونحن نحتاج إلى تربية نفوسـنا، واحتياج الإنسان لأن يتعلـم الخير لا يتوقف على سـنٍ معينة، وإن كان الإنسـان في صغـره أقرب للإجابة والتعود والإعـداد، ولكن الجميع مُلْزَم بهذه الوصايا، فهي ليسـت خاصة بكل من له ابن يربِّيه، بل هي لكل إنسان، يبدأ بها نفسَه ثم يؤدِّب بها غيرَه بعد ذلك.

أسـأل الله أن ينفـع بـه كاتبـه وقارئـه وناشـره، وأن يجعله لوجهـه خالصًا، وأن يغفر لنا أجمعين ما كان من خطأ أو زللٍ، وأن يجمعنا مع نبيه ﷺ في جنته.

كَتَبَهُ

يَاسِر بُرهَامِي

دار العلماء الراسخين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦٤٦

لقمان الحكيم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

[لقمان:١٢]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :

اختلف السلف في لقمان عليه السلام: هل كان نبيًا، أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا.

وقال قتادة، عن عبدالله بن الزبير: قلت لجابر بن عبدالله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطس من النوبة.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة.

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثني عبدالرحمن بن حرملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له

سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود؛ فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم كان أسود نوبيًّا ذا مشافر.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الربعي قال: كان لقمان عبدًا حبشيًا نجازًا، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها. فقال: أخرج أطيب مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب. فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها. فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب. فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما؟! فقال لقمان: إنه ليس من شئ أطيب منهما إذا طابا،ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبدًا صالحًا، ولم يكن نبيًا.

وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسودَ عظيم الشفتين، مشقق القدمين.

وقال حَكَّام بن سَلْم، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان

لقمان الحكيم عبدًا حبشيًّا غليظ الشفتين، مُصَفَّح القدمين، قاضيًا على بني إسرائيل.

وذَكَرَ غيرُه: أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل في زمن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدًا أسود غليظ الشفتين مُصَفَّح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: أَلَسْتَ الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يَعْنِينِي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبدالرحمن بن يزيد، عن جابر قال: إنَّ اللهَ رَفَعَ لقمانَ الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يَعْنِينِي.

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفي كونه نبيًّا، ومنها

ما هو مُشْعِر بذلك؛ لأن كونه عبدًا قد مَسَّه الرِّقُّ ينافي كونه نبيًّا؛ لأن الرسل كانت تُبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًّا، وإنما يُنقل كونه نبيًّا عن عكرمة إن صح السند إليه؛ فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث وَكِيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة، فقال: كان لقمان نبيًّا. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وقال عبدالله بن وهب: أخبرني عبدالله بن عياش القِتْبَاني، عن عُمَر مولى غُفْرَة، قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان؟ أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وَطْءُ الناسِ بِسَاطَكَ، وغَشْيُهم بابَك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن أصغيت إلى ما أقول لك كنتَ كذلك. قال لقمان: غَضِّي بصري، وكَفِّي لساني، وعِفَّة طُعْمَتِي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرِمَتِي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يَعْنِينِي؛ فذاك الذي صيَّرني إلى ما ترى، انتهى

صفحة ١٠ اسود
صفحة ١١ اسود

كلام ابن كثير.

❑ **قوله الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢].

فالله ﷻ الذي يؤتي الحكمة من يشاء، كما قال ﷻ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، فهذا اصطفاءُ الله ﷻ، وشرفٌ عظيم للقمان أن يذكره الله في كتاب يُتْلَى إلى يوم القيامة، ولم يذكره بأنَّ له مالًا كثيرًا، أو نَسَبًا، أو جَاهًا، بل ذكره بأنه آتاه الحكمة، فهذا الذي يتفاضل به الناس، كما قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]،

فأهل العلم هم أفضل الناس وأكرمهم عند الله ﷻ، وهم ورثة الأنبياء؛ فـ «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[١]

وقد قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢]،

(١) رواه أبو داود(٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه(٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

قال ابن القيم: «وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرًا، كما أن من أراد به خيرًا فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرًا»[١]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهُ ﷻ هو الذي يؤتي العلمَ مَن يشاء، ولكن عليك أن تَسْعَى لتحصيله، ولا تجلس في بيتك وتنتظر أن يأتيك، والآثار عن الصحابة والسَّلَف – رضوان الله عليهم – كثيرة في تحمُّلِهم المَشَاقَّ في طلب العلم، حتى إنَّ منهم مَن تعرَّض للمخاطر والمِحَنِ العظيمة، وسافر الأسفار البعيدة لكي يسمع حديثًا واحدًا.

ووسائل العلم اليوم كثيرة مُيَسَّرَة –بفضل الله–، من كتب، وأشْرطة، وأُسطوانات، ومواقع علي شبكة (الإنترنت)، ودروس علم، وقنوات فضائية،[٢] وكتب سهلة وميسَّرة.

وإذا علمنا أن الله آتى لقمان الحكمة، فهل لنا نصيب من ذلك، وقد مَنَّ الله علينا بإرسال النبي ﷺ لكي يعلمنا الكتاب والحكمة؟ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٦٠).

(٢) بشرط أن تنتقي منها الملتزمة بمنهج أهل السنة.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٠٠٤٦١٤٦

رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

فَسُنَّةُ الرسول ﷺ - بعد كتاب الله ﷻ - أعظمُ الحكمة، فإذا تعلَّمنا الكتابَ والسُّنة، وتدبَّرناهما، وعملنا بهما، ودعونا إليهما، ودعونا بهما، وتحاكمنا إليهما، فقد أخذنا بنصيب عظيم من الحكمة، وتأمَّل أن حكمة لقمان قد جمعها الله لنا في سورة واحدة من سور القرآن، هي أقصر من غيرها بكثير، ففضل الله علينا بالكتاب والسُّنَّة فضلٌ عظيم.

وكلمة ﴿ءَاتَيْنَا﴾: تدل على أنه يجب على العالم وطالب العلم أن يَنْسبَ الفضلَ دائمًا لله لا لنفسه، فالله ﷻ هو الذي يؤتي العلم من يشاء، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وقال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

وَلْيَحْذَرِ العالِمُ مِن نِسبة العلم لنفسه، كما قال ﷻ عن

قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، وهذا يؤدِّي إلى نسيان العلم وألَّا يُبَارَك له فيه.

❐ **قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾** [لقمان:١٢].

أَمَرَ اللهُ لقمانَ أن يشكر الله على هذه النعمة، فلابد في هذا المقام أن يشهد العبد أن الفضل كله لله، ولا يشهد لنفسه بالفضل، بأن يقول: «أنا الذي طلبتُ العلم، وسافرتُ في سبيله، وحفظتُ القرآن، ومعي من القراءات كذا وكذا»؛ فالفضل كله لله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٧٣]، وكما قال نبي الله يوسف لصاحِبَيْهِ في السجِّن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى﴾ [يوسف:٣٧].

وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فالتقوى من أسباب تحصيل العلم، فليحذر الإنسان من العُجْبِ والرِّيَاء والغرور؛ لأن ذلك من أسباب نسيان العلم، وعدم قَبُول العمل.

فإذا شكر الإنسان ربَّه على ما علَّمه من علم وحكمة، فإن ذلك من أسباب زيادة العلم، كما قال ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

:ǯǸ Ğ ǽ ǬǪǖǩŁ ŋǮǖǅ Ƹ Ğ ǁp

١-بالقلب: باستشعار فضل الله، والفقر إلى الله، بعد أن أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ثم علَّمنا ما لم نكن نعلم، قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

٢-ومن الشكر: الشكر باللسان، والتحدث دائمًا بلفظ: «علَّمني الله، مَنَّ اللهُ عليَّ بحفظ القرآن، ومعرفة السُّنَّة...»، كما قال تعالى - حكايةً عن يوسف عليه السلام -: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٣٧]، ولكن ليحذر على نفسه في هذا المقام من أن يكون مزكيًا لنفسه في صيغة التحدث بنعمة الله، والفرق بينهما دقيق جدًا، إنما هو من أعمال القلوب، ومن هنا خشي العلماء على أنفسهم من الرياء وتزكية النفس.

٣- نشر العلم بين الناس، والدعوة إلى الله به، وهذا الشكر ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة: فأما في الدنيا فبزيادة علمه، وبالتوفيق للعمل الصالح، وقربه من الله، مما يؤدي لثباته على دين الله، وفي الآخرة يجد ثواب ذلك عند الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ

ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان:١٢].

الكفر هنا جحود النعمة، مَن جَحَدَ نعمةَ الله فلا يضر إلا نفسه؛ فالله لا تضره معصية العاصين، ولا جحود الجاحدين، ومَن جحد نعمة الله عليه بالعلم، ونَسَبَهُ إلى نفسه، فعِلمه هذا إلى زوال في الدنيا، ويوم القيامة يَحْبَطُ عملُه، وقد يؤدِّي به إلى الرِّياء، فيكون أول من تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ: رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المال. فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟. قَالَ: بَلَى يَارَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟. قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بل أردت أن يقال: (إن فلانًا قارئ) فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟. قال: بلى يارب. قال: «فماذا عملت فيما آتيتك؟» قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له:

«كذبت». وتقول له الملائكة: «كذبت». ويقول الله تعالى: «بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذاك». ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: «في ماذا قتلت؟». فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: «كذبت». وتقول له الملائكة: «كذبت». ويقول الله: بل أردت أن يقال: «فلان جرئ، فقد قيل ذاك»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة، أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» (١)

وشكر الله ﷻ نعمة يشكر عليها، كما روي عن نبي الله داود عليه السلام أنه قال: «يارب، كيف أشكرك وشكرك نعمة تحتاج إلى شكر؟» قال: «الآن شكرتني».

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٣).

بين لقمان وابنه:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

[لقمان:١٣]

هذه الجلسة الإيمانية، والحوار المباشر الخاص بين الأب وابنه، أو المربي ومن يربيه، هي وسيلة التربية الإيمانية، تلك الجلسة التي يبث فيها موعظته ومشاعره التي يعبر له فيها عن حبه، ويذكره بالعلاقة التي بينهما، فكرر النداء بلفظ: «يا بني» مرات متعددة، هذه هي الجلسة المفقودة في معظم بيوتنا، فمن يجلس مع ابنه يعظه؟ ومن يجلس مع من يعلمهم ويربيهم ويؤدبهم بهذه الوصايا؟ قلة نادرة، بل تكاد تكون غائبة إلا من رحم الله ﷻ.

وهذه الوسيلة لا تغني عنها الوسائل الأخرى، مثل الدروس العامة، أو الوسائل المعاصرة: كالكتاب، والشريط، والخطبة، وهذه وإن كانت مفيدة بلا شك لكن لا تغني عن هذه الجلسة الخاصة، التي يبث فيها المربي موعظته

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٢٠٠٤٦٤٦

ونصيحته، بل ويسمع من ولده أو تلميذه ما يجول في خاطره، ويحدث به نفسه، أو يراه في منامه، فضلًا عما يحدث له، كما جلس نبي الله يعقوب مع ابنه يوسف، حينما قص عليه المنام الذي رآه في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف:٤، ٥].

لم يكن في هذه الجلسة غيرهما من إخوة يوسف، وهذه خصوصية ضرورية -بلا شك- لكي يُخْرِجَ الابنُ ما في نفسه، ولو تَأَمَّلت أثر هذه الجلسة في مستقبل الابن لرأيت ذلك واضحًا في قصة يوسف، فكل ما لقَّنه أبوه له في هذه الجلسة التي لا تأخذ إلا دقائق معدودة -فيما يقرأ القارئ- كان له أعظم الأثر:

فقد قال له: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، ولم يقل له: إن إخوانك هم أعداؤك، أو أنهم يكيدون لك بل علمه أن الشيطان هو الذي جعلهم يكيدون، لا أنهم أعداؤه أصلاً.

وقد ظهر أثر ذلك عندما حقَّق الله رؤياه، قال يوسف:

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فعبَّر عما فعل إخوتُه وعما وقع بينه وبينهم بأسلوب رفيع، حيث جعل الشيطان هو السبب في العداوة، ولم يقل: «من بعد ما فعل إخوتي ما فعلوا».

فأخبِرونا مَن مِن أبناء المسلمين يعرف الشيطان؟، ويعرف عداوته البيِّنة للإنسان؟! أم أنَّ الشيطان عنده هو (العفريت) الذي يخاف منه إذا هدَّدته أمه أو أبوه بأنه سيخرج له العفريت والجن؛ ليظل مرعوبًا من العفاريت والجن؟! ولولا هذا الأثر السَّيِّئ في النفوس، من الخوف من الجن والعفاريت، لما رأينا هذا الكم من الحالات التي يُظَنُّ بها أنها ملبوسة أو ممسوسة أو مصروعة أو غير ذلك؛ فإن هذا تعظيم لشأن الجن أضعافًا مضاعفة، أكثر مما يستحقه ويناسبه بما هو واقع في الحقيقة.

وكذلك حينما علَّمه أبوه أن الله هو الذي يَمُنُّ وأنه هو الذي يجتبي ويعلِّم ويفعل ما يشاء، أثرت هذه الكلمات المضيئة من يعقوب عليه السلام حين قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف:٦].

فلم يقل له: «أنت سوف تكون الأعلى من إخواتك، أو أنك ستكون عالمًا بتأويل الرُّؤَى».

وظهر أثر ذلك -حين سجد له أبوه وإخوته- حين قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف:١٠٠] ولم يقل: «قد تحققت أو صارت حقيقة»، ثم قال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف:١٠٠] فنسب النعمة إلي الله، والمُعتاد منا نحن الذين ندَّعي الالتزام أن نقول:

«خرجتُ من السجن»، ولا يحاول أحدنا أن يستحضر أن الله هو الذي أخرجه من السجن، أو أخرجه من الأزمة الفلانية، أو شفاه من المرض الفلاني، بل نقول أحيانًا: «شُفِيتُ من المرض»، نَبْنِي الفِعل للمجهول هكذا ولا نَنْسُبُهُ إلى الله!

ثم قال نبي الله يوسف: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف:١٠٠] ولم يقل: «جئتم من البدو».

ثم علَّمه أبوه أسماء الله وصفاته، في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف:٦].

وقد ظهر أثر ذلك في آخر القصة، حين توجَّه يوسف في

خطابه لأبيه بهذه الكلمات، بعد هذه السنين الطويلة، حين قال له: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

فيجب على الآباء أن يعلِّموا أبناءهم أسماء الله وصفاته، ليس -بالقطع- علي طريقة المتكلِّمين السخيفة المدمِّرة، التي لا يَعِي الناسُ منها شيئًا، ويتركون الموضوع من أصله، ولقد صادفتُ في الطريق ابنًا صغيرًا -لا يجاوز الثالثة من عمره، بالكاد يتكلم- يسأل أباه فيقول: «(ربنا فوق) أليس كذلك يا أبي؟» فقال أبوه: «ربنا في كل مكان يا بني». فقلت له: «ابنك أعلم منك؛ فالله مُسْتَوٍ على عرشه فوق السماوات، وليس أنه في كل مكان؛ لأننا نحن من ضمن الأماكن، فهل موجود بداخلنا أو موجود في الأشياء التي حولنا؟!» فقال لي الأب: «جزاك الله خيرًا».

بالتأكيد قد قال الابن ذلك بسبب فطرته السلمية، لا أنَّ الأَبَ علَّمه ذلك؛ لأن الأب لو علَّمه لعلَّمه أن الله في كل مكان.

إن هذه الجلسة الخاصة في التربية، هي الجلسة المفقودة في بيوتنا الآن؛ فإن أغلب الناس مشغولون انشغالًا عجيبًا،

فأحسنهم حالًا مَن كان مشغولًا بعمل الحلال، يخرج قبل أن يستيقظ الأولاد، ويعود بعد أن يناموا، وربما بَقِيَ الشهور -بل السنين أحيانًا- في الخارج، يبحث عن وسيلة للرزق، والأُم مشغولة بالطبخ والكنس والغسل، وهي لا تقرأ شيئًا ولا تتعلم شيئًا؛ وبالتالي يحدث فقدان تام للأبناء، نلحظ أنهم يَنْشَؤُونَ غيرَ ملتزمين، ونتساءل: لماذا ينشأ الأبناء غيرَ ملتزمين مع أن الأب والأم ملتزمَيْنِ؟ نقول: ذلك بسبب غياب هذه الجلسة بين الأب وابنه.

وترى هذه الجلسة الخاصة أيضًا في جلسة نبي الله إبراهيم مع إبنه إسماعيل حين قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات:١٠٢]، فهذه جلسة خاصة لا يوجد فيها أحد غيرهما.

وكما أسلم عليٌّ بن أبي طالب، لما رأى النبي ﷺ وزوجته يصلِّيان.

وقد كان أبو بكر وعمر -دائمًا- يرافقان النبي ﷺ في خروجه وذهابه وإيابه، حتى أنَّ علي بن أبي طالب لما سار في جنازة عمر قال: «وددت أن تُدفن مع صاحِبَيْكَ».

ولما دخل النبي ﷺ على ميمونة قال لها: «**أَصَلَّى الْغُلَامُ؟**»[1]، ولما قام من الليل قام ابن عباس يصلِّي معه.

وكذلك لما علَّمَ النبيُّ ﷺ ابنَ عَبَّاس ﵄ حين قال له: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشْيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشْيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[2].

فهذه وصية عظيمة، تتضمَّن أصولًا في التربية الاعتقاديَّة، والعباديَّة، والعمليَّة، وغير ذلك.

وفي حديث مُعَاذٍ ﵁ قال: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ،**

---

(١) رواه أبو داود (١٣٥٦) من حديث ابن عباس ﵁، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٠٨).

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي(٢٥١٦)من حديث ابن عباس ﵁، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه العلامة الألباني في «تخريج المشكاة».

وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ، أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ، أَلَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(١).

إذن لم يكن أحدٌ معهم غيرهم. فأَخْبَرَ بها معاذٌ رضي الله عنهم في آخر حياته تَأَثُّمًا.

أعداء الإسلام حَرِصُوا على ألَّا توجد مثل هذه الجلسة، فَرَتَّبُوا نظامَ حياتِهم على أن يكون الناس بين أحد أمرين: الفقر المُنسِي والغِنَى المُطْغِي:

فالغِنَى المُطْغِي: يجعل الغني يزداد غني، فهو مشغول لأنه رجل أعمال، لا يعرف شيئًا عن أبنائه وأهله، ينام بضع ساعات في اليوم والليلة، وباقي يومه في العمل، لا يعرف شيئًا إلا شهوته وأمواله.

والآخر فقير مطحون، يعمل أيضًا وقتًا طويلًا.

وهذا من توابع النظام الربوي اليهودي، وكذلك النظام الرأسمالي المبني على الظلم والاحتكار، لكي يطحن

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الفقراء بالربا.

لكن ما هو الحل؟ هل نترك العمل ولا نتكسب؟

نقول: «**البَرَكَةُ مِنَ اللهِ**» كما قال النبي ﷺ(١)، فالبركة تكون في المال، كما تكون في الصحة، وفي الوقت، فالعلاج هو تقوى الله عز وجل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

لكن لو أخذنا نحسب، كم نكسب من المال؟ وكم ننفق؟ لنرى هل يكفي هذا أم لا؟، فهذا معناه: «من حيث نحتسب»، ولكن الله قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فالتقوى عاقبتها أن يرزقنا الله من حيث لا نحتسب.

أما الثمرة المرة من كثرة الانشغال، وعدم الكفاية، وعدم وجود فرصة للجلوس مع الأبناء، فهي بسبب قلة التقوى، وبسبب التباعد عن الله عز وجل، كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي: « **يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى، وأملأ يديك رزقًا. يا بن آدم، لا تباعد مني فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ**

(١) رواه البخاري (٥٦٣٩) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

يديك شغلا»[(١)]، فلو أن الناس تفرغوا بالنية والإرادة، وجعلوا الهم همًا واحدًا، لكفاهم الله وأغناهم، وإن سعى الإنسان في أمر دنياه بالحلال، دون أن يكون ذلك طاغيًا، فلن تكون هذه الفتنة التي تجعل الإنسان مثل ثور معلق بساقية، لا يعرف ما يفعل! وهذه هي حياة أوروبا وأمريكا، بل والعالم الذي يلهث من ورائهما، يعمل الإنسان وقتًا طويلًا ثم يعود منهكًا، ويقضي باقي يومه في مشاهدة التلفاز، أو يجلس على المقهى، وأنت لا تجد اليوم مقهى إلا وله رواده في أي وقت من ليل أو نهار، وأنت تجد اليوم مقاهي (الإنترنت) -مع الركود الشديد- هي من أنشط المحلات وأكثرها كسبًا، فماذا يبقي من وقتٍ لهذه الجلسة.؟! وهذا الذي يريده أعداء الإسلام.

وأبناؤنا يتعرضون لضغط شديد كي يلعبوا كما يلعب الناس، ويشاهدوا أجهزة الإفساد كما يشاهدها الناس، لكن الحل، هو في القرب من الله، بمزيد من التقوى والتفرغ للعبادة، فبهذا تحل كل المشاكل، ونجد وقتًا نجلس فيه مع أبنائنا.

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٦٢) من حديث معتقل بن يسار رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٥).

هذه الوسيلة للتربية، أطلنا فيها الكلام لأهميتها، سواء على المستوى الشخصي، أو على المستوى الدعوي في المسجد، وكذلك كل من هو مسئول عمن يربيهم، ويجلس معهم، ويذكرهم بالله عز وجل.

❐ **قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾** [لقمان:١٣].

هذه الكلمة الطيبة التي تذكره بشدة الحب، فكلمة «بني» تعني: ابني الصغير.

بوب عليه البخاري: «قول الرجل للصغير: يا بني». ثم ذكر عدة أحاديث في ذلك، ومثل ذلك قول النبي ﷺ لأنس: «يا بني»[(١)]، وهي كلمة إذا تأملناها، نجد أنها تعطي مشاعر عجيبة في نفس المُربِّي والمُربَّى، بدلًا من الشتم أو النهر، أو قول الأب لابنه: «يا ولد».

لماذا يتعلم الولد الشتم؟ لأنه سمعه من أبويه. والابن في هذه المرحلة، يتلقى من الأسرة أكثر مما يتلقي من الشارع، فمع أنه يسمع في الشارع أنواع السباب والشتائم، لكنه إذا لم يسمع من أبويه هذه الألفاظ -خصوصًا إذا نهياه عن ذلك

(١) رواه مسلم (٢١٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأشعراه بالحب والشفقة- فإنه لا يستجيب لها.

وهـذه الكلمة «يا بني»، تشـعره بالعلاقة معـه، وأنه ينصحه لأنـه يحبه، لا أنهـا مجرد أوامر تشـبه الأوامر العسـكرية، لابد أن ينفذها. وهذا الأمـر تطالب به الأمهات كما هو مطلوب من الآباء.

وأنت تجد في واقعنا، أن الأوامر غالبًا تكون بالنهر والشدة، وفي أمـور تافهـة: كالأكل، والشـرب، واللبس، وهـذه الحدة لا تثمر إلا ثمرة مَرَّةً.

فلابـد أن نتعـود هذه الكلمة التي لهـا الأثر الطيب في نفس المُربِّي والمُربَّى.

قولـه تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان:١٣].

هـذه هـي التربيـة الإيمانيـة، بدايتهـا بالـبراءة من الشـرك والتحذير منه؛ لأنه أعظم الظلم.

كلمـة «الشـرك» ينبغـي أن يعرفهـا الأبنـاء، لو سـألنا أبناء المسـلمين: ما الشـرك؟ بل قل: لو سـألنا آباءَهـم وأمهاتِهم، بـل لو سـألنا الإخوة والأخوات: ما الشـرك؟ ومـا هي أنواعه المنتشـرة؟ لوجدتَ في ذلك خللًا كبيرًا، ربما وجدنا الكثيرين

لم يسمعوا عنها، ولو ذُكِرَتْ لهم، فعلى سبيل الاستحياء؛ فإن الشرك عند القوم الذين تركنا لهم أبناءنا، يعلمونهم، ويربونهم، ليس له وجود -أصلًا- ولا يعرفون شـيئًا هو شـرك، حتى من يعبـد الأوثـان -عندهـم- طالما أنـه صاحب ديـن فإنه ليس بمشـرك أو كافر! أما اليهود والنصارى، فهم عندهم مؤمنون!

وهـم يصرحون -أحيانًـا- بصحـة الملل الثـلاث: اليهودية، والنصرانية، والإسـلام، وأنها متسـاوية وكلهـا حق! حتى قال أحد الزنادقة: «لو أن محمدًا أمرني بالكفر باليهودية والنصرانية لكفـرت به»! وهذه ردةٌ صريحـة. وأحيانًا يصرحون بتصحيح كل ملـة، فالكافـر عندهم هو مـن لا يدين بديـن -أي دين-، لا كل مـن لا يديـن بدين الإسـلام، كما ذكـر الله -تعالى- في كتابـه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾، [آل عمران:١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

إن قضيـة «الـولاء والـبراء»، أصبحـت تتعـرض للاهتزاز الشـديد في نفـوس الأبنـاء، وأصبـح الإنسـان يجـد نفسـه مضطـرًا لأن يعـذر بعـض عـوام المسـلمين في عـدم تكفيـر

اليهود والنصارى؛ وهذه المسألة -أصلًا- من المعلوم من الدين بالضرورة، بل إنه من المعلوم من الدين بالضرورة، أن من لم يكفر كل من دان بدين غير الإسلام فهو كافر، لكن الجهل هو الذي جعل هذه المسألة في واقعنا، ليست من المعلوم من الدين بالضرورة، وإن كانت إقامة الحجة فيها بالآيات البينات الواضحات، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]، وكما قال الله: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢]، وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، وكما قال النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة -يهودي ولا نصراني- ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**» (١)

(١) رواه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الآيات تبين أن كل ملة غير الإسلام كفرٌ، وهذا لابد أن يؤصل في نفس كل مسلم ومسلمة، فمن صحح ملةٌ غير ملة الإسلام، لا يكون مسلمًا ولا يكون موحدًا.

:ηŘǾШŬƙŀ ǬĦāƸĂ ǰǭϸ

أنهم يبثون في الناس أنه لا عداوة بيننا وبين اليهود والنصارى، ومثالًا على ذلك: كانوا يسمون في قصص الكتب المدرسية: «عادل وسعاد»، فأصبحوا اليوم يقولون: «محمد وسمعان». وقد اختاروا اسم «سمعان» لأنه لا يوجد إلا عند اليهود والنصارى. هذا من الأساليب الخفية.

:ηƮǽƸǄ ŀǾǩƘƽϙ ǣ ǨǅǴ ǰ Ǧ ǩ

مثل: أن يذكروا أن هناك عيدين للمسلمين، وعيدين للنصارى، عيدي الفطر والأضحى عند المسلمين، وعيد الميلاد وعيد القيامة عند النصارى.

ومن ذلك: حذف الغزوات التي بين المسلمين وبين اليهود والنصارى، مثل غزوة «خيبر»، وغزوة «مؤتة»، فلم يعد لهما ذكر في الكتب الدراسية.

وهذا كله لكي لا يدرى شئٌ عن الشرك.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٤٤٦

لابـد أن يحـذر الصغار والكبار من الشـرك، حتى لا يقعوا فيـه، فبعض النـاس يظن أن الشـرك هو عبـادة الأصنام فقط، وهذا خطأ.

:ƝYƴǖǬǭ 3ǸǄ Ǵǩ ƚƶǵƥ ǛƞǾƛǸƛƸǩƚ Ǽə æ Ƹǂǩƚ æ ǄǶə

مثـل: مـن يعتقد أن غيـر الله مـن الأولياء، أو مـن الأنبياء، أو الملائكـة، يدبرون الأمر، وكما يعتقد عبـاد القبور -مثلًا- ويزعمـون -كذبًـا- أن الله قـال: «الملك ملكـي وصرفت فيه البدوي»! أو يزعمون أن أقطابًا أربعة كل منهم يأخذ ربع الكون يدبره! وبناءً على هذا، سـألوهم قضاء الحاجات، وسـألوهم جلـب النفع ودفع الضر، وهـذا لا يمكن أن يكـون مبنيًا على غير اعتقاد، بل لابد أن يكون عندهم اعتقاد، أنهم يملكون شيئًا من النفع والضر، إما على سبيل الوساطة أو الشفاعة، أو أن الله فـوض إليهم ذلك، وكل هذا من الشـرك الذي لا ينفع صاحبه معـه عملٌ، حتى لو لم يذبح ولـم ينـذر، لكنه اعتقد أن غير الله يدبر الأمر دون أن يأذن الله ﷻ، أو دون أن يأمر الله ﷻ.

كذلك من صور الشـرك في الربوبية: أن يعتقد الإنسـان أنه يملك نفسـه. وهذا مـن أخطر مظاهر الشـرك في قضية المِلْك

والمُلْك، أن يظن الإنسـان نفسه حرًّا مع أوامر الله ﷻ، إن شاء قبلها وإن شاء ردها.

وكذلك: من يرى نفسـه مسـتغنيًا عن ربـه ﷻ، فإنه يطغى ويكفـر، وكذلـك الـذي يـرى أن المال مالـه وليس مـال الله الذي أعطاه إياه، فهذا من أسـباب كفره؛ ولذلك كفر صاحب الجنتيـن الذي قـال لصاحبـه: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهـف:٣٥،٣٦]، فليـس كفـره لإنـكار البعث، بـل كفر -قبل ذلـك-؛ لأنه أنكـر ملك الرب ﷻ وغنـاه، وظن نفسـه غنيًـا عن الله ﷻ، وظـن أن هذه الجنة تقوم بنفسـها، وأنه لا يحتـاج إلى أحد؛ لأنه مالـك لها، وغره أنـه يتصرف في ثمارها كل سـنة، وأنها تجـري على عادة معينة دون انقطـاع، فقـال: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهـف:٣٤،٣٥]، فكفـر من تلك اللحظـة، وزاد كفره بقولـه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهـف:٣٦]، فجـزم لنفسـه بأنه لو كانت هنـاك آخـرة فلابد أن يعطى خيرًا منها. قـال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ

صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٣٧،٣٨]، فأكد على قضية الربوبية، فالله هو الرب، يعني: هو المالك ﷻ.

البعض يظن أن المقصود بقول الله ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] أن الإنسان حرٌّ يفعل ما يشاء، لكن المقصود هنا هو التهديد؛ بدليل قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف:٢٩]، وكما تقول أنت: « افعل كذا وسترى عاقبة فعلك!»، فهذه ليست حرية، بل إن الإنسان مسئول عن تصرفاته بعد ذلك.

وكذلك من صور الشرك في الربوبية: اعتقاد أن مع الله ﷻ من له حق الأمر والنهي والتشريع، أو حق تبديل الشريعة، فبهذا جعله ربًّا مع الله، والدليل على ذلك قول الله ﷻ عن اليهود والنصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١].

فهم لم يعتقدوا أن الأحبار والرهبان خالقون، أو رازقون،

أو يدبرون الأمر، ولم يعتقدوا أنهم مالكون لهم، لكن اعتقدوا أن لهم حق التشريع من دون الله ﷻ، فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن**». وسمعته يقرأ في سورة براءةٌ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم.

قال النبي ﷺ: «**ألم يحرموا الحلال، ويحلوا الحرام فاتبعتموهم؟**»، قلت: بلى. قال النبي ﷺ: «**تلك عبادتهم**»[1].

فإذا اعتقد أحدٌ أن لغير الله حق تبديل الشرع، فقد اتخذه ربًّا، فهذا شرك في الربوبية، فإن اتبعه على التبديل، معتقدًا ما قاله دون ما قال الله ورسوله، فقد عبده من دون الله.

وأنت ترى من ينادون بـ«الديموقراطية»، وهي أن لكل شعب من الشعوب أن يشرع لنفسه ما يشاء، ويعرضون شرع الله ﷻ على العقول، فما رآه الناس حقًّا فهو حق، وما رآه الناس باطلًا فهو باطل، فأصبح الشعب عندهم هو مصدر كل

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «غاية المرام».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية.

كذلك من الشرك في الربوبية: اعتقاد أن هناك من يملك الضر والنفع والإحياء والإماتة مع الله، مثل من يعتقد أن الساحر له القدرة على الضر والنفع، وتقليب القلوب، وأن يجعل الزوج يبغض زوجته أو العكس، ومن يظن أنه يملك الإحياء أو الإماتة، فكل ذلك لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ [يونس:٣١،٣٢].

كذلك من يذهبون للكهان، ويعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيب، نعوذ بالله من ذلك.

كذلك هناك الشرك في الإلهية، وهو نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

١- دعاء غير الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾

[الأحقاف:٥،٦].

كمن يتوجه بالدعاء والاستغاثة وطلب المدد من الأموات والغائبين، قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

٢- الذبح لغير الله، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

فإذا كانت الصلاة لغير الله شركًا، فالنحر -أيضًا- لغير الله شرك، وقد قال النبي ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»(٢).

كمن يذبح تقربًا أو تعظيمًا لغير الله: كمن يتقرب إلى الجن والأولياء، أو كان ناذرًا لهم، كمن قال: «يا سيدي فلان: لو شفي مريضي، فلك كذا وكذا من الغنم»، أو يسمي عند الذبح غير اسم الله ﷻ، كمن يقول: «باسم الصليب، أو المسيح، أو باسم الولي الفلاني»، أو الذبح على النصب، كمن يأتي إلى نصب منصوبة للذبح عندها.

٣- النذر لغير الله، والحلف بغير الله معظمًا للمحلوف به.

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٢).
(٢) رواه مسلم (١٩٨٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كمن ينذر للصالحين والجن.

والنذر عبادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠]، فالنذر عبادة لا تصرف إلا لله ﷻ، قال -تعالى- في الحديث القدسي: «**أنا أغني الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[(١)].

٤- نسبة علم مفاتح الغيب، وتصريف الكون لغير الله. كمن يصرف ذلك للأنبياء، أو الأولياء، أو الكهان والعرافين، والمنجمين، قال ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، فمن اعتقد أن غير الله عنده علم مفاتح الغيب، فقد جعل لله ندًا في الأسماء والصفات، وذلك مقدمة لصرف العبادة لغير الله، فهم يعتقدون أن الولي الفلاني، أو النبي الفلاني، يسمع كل شيء -وهو غائب- ويعلم كل شيء، وعندهم أن النبي ﷺ يعلم علم الساعة، والله ﷻ قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

فمن اعتقد أن مع الله من يصرفون الكون، فقد أشرك في الربوبية، وجعل لله ندًا في الأسماء والصفات، فإذا أضيف إليه اللجوء إليهم، ودعاؤهم ليضروا أو ينفعوا، فقد زاد فيهم شركًا في الإلهية، كمن يأتي السحرة والكهنة ليسحروا له، أو ليخبروه عن مستقبله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]، وهذا دليل على أن السحر المتعلم من الشياطين كفر.

٥- كذلك، التحاكم للقوانين الوضعية التي تخالف حكم الله ﷻ، هو شرك في الإلهية.

فمن اعتقد أن لغير الله حق التشريع وسن القوانين، فهذا شرك في الربوبية، فأما إذا اتبعه على ذلك فقد أضاف إليه شركًا في الإلهية، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «**ألم يحرموا الحلال، ويحلوا الحرام فاتبعتموهم؟**» قال: بلى. قال ﷺ: «**تلك عبادتهم**»[(١)].

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وحسنة العلامة الألباني في «غاية المرام». وقد سبق تخريجه.

:ŊYƴŭʠʠ ƷǸǄ -ƘŊǯǽ- ǴǪə ƩŭǄ àƗ æ Ʃ ǂƙƗ Ƙǭǫƿ

١- تعليق الخيوط ونعل الفرس (حدوة الحصان) والحلق والخرز والودع والتمائم والأحجبة؛ معتقدًا أنها أسبابٌ لدفع العين والحسد والشر.

أمـا لو اعتقـد أنها بذاتهـا تنفع وتضـر، فهذا شـركٌ أكبر في الربوبية، قال رسـول الله ﷺ: «**من تعلـق تميمةً فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعةً فلا ودع الله له**»[١]، وفي رواية «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[٢].

٢- الرياء، وهو أن يريد المنزلة والجاه عند الناس بالعبادات، قال الله -تعالى- في الحديث القدسـي: « **أنا أغني الشركاء عن**

(١) رواه أحمـد (٤/ ١٥٤) والحاكم (٤/ ٢٤٠) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح»، وحسـنه الشـيخ شعيب الأرناءوط لغيـره في تعليقه على «مسـند أحمد»، وضعف إسـناده العلامة الألباني لكـن صححه بلفظ: «من تعلق تميمة فقد أشـرك» وانظر: «الصحيحة» (٤٩٢).

(٢) رواه الحاكـم في «المسـتدرك» (٤/ ٢٤٣) مـن حديث عقبـة بن عامر الجهنـي رضي الله عنه، وصححه العلامـة الألباني -كما في التخريج السـابق- في»الصحيحة» (٤٩٢).

الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١]

٣- الحلـف بغير الله -تعالـى-، قال النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[٢].

٤- التطير، وهو التفاؤل أو التشاؤم بالطير، قال النبي ﷺ: «**الطيرة شرك**»[٣].

أمـا لو اعتقد أن الطير ينفع أو يضر بذاته، فهو شـرك أكبر. لكن لو اعتقد أنها سبب في جلب النفع أو دفع الضر، فهو شرك أصغـر، كمن يعتقد أن البومة سـببٌ للشـر، والحمامة سـببٌ للخير، والطير الفلاني سـببٌ للبركة في البيت، وكأولئك الذين يرشون الماء لجلب الرزق، فهذا كله شرك أصغر. أما لو اعتقد أنها هي التي تأتي بالرزق بذاتها فهذا شرك أكبر.

٥- التوسـل البدعـي: كأن يقول للميـت: «ادع الله لي، أو استغفر الله لي»، فهذا شرك أصغر.

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٢٥) والترمذي (١٥٣٥) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٠٤٢).

(٣) رواه أبـو داود (٣٩١٠) وابـن ماجـه (٣٥٣٨) مـن حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٤٢٩).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

أما لو قال: «أغنني، أو ارزقني، أو ارحمني، أو اشفني» فهذا شرك أكبر.

:ΘĶĀdžĸıþ DĶǮƽ àǂ Ǣə ĶƱƴǎ -ĶŇǽǫ- ǣ Ƹǂĸįþ

فمن عطل أسماء الله وصفاته، وجحدها، وحرفها، وكذلك من شبه الله بخلقه، أو شبه المخلوقين بالخالق، هذا كله من الظلم العظيم، بأن يضع الإنسان نفسه في غير مواضعها، وهو بذلك لا يضع ربه في غير موضعه؛ لأنه مهما عبد العابدون غير الله فإن ذلك لا يضر الله ﷻ، فإن الله ليس معه من إله، قال الله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، لكن الشرك هو ظلم العبد لنفسه الظلم الأكبر، وليس ظلمًا لله، قال ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

فإن الله Ü لا يقدر العباد على ظلمه، ولا يتصور ذلك منهم مهما صنعوا فهم في قبضته، فالله جعل الشرك أعظم الظلم.

والشرك هو أعظم الظلم؛ لأن الله فطر القلوب على أن تتوجه إليه بالحب والخوف والرجاء، وهذا هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ -في الحديث القدسي- فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**إني خلقت عبادي حنفاء**

كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(١)، وقال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»(٢)، فإذا توجهت القلوب لغير الله ﷻ شقيت أعظم الشقاء؛ لذا نرى أغلب شعوب الأرض من أهل الملل الأخرى يعيشون في نغصٍ وكدرٍ؛ على ما معهم من أسباب الرفاهية والسلطان والمال، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأنت تلحظ في ثنايا الوصية، تعليم الأسماء والصفات، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦]، فهو تعريف الابن بالأسماء والصفات، وأن الله سوف يأتي بعملك.

المعصية التي فعلتها «مهما كانت قليلة، ولو كانت مثقال ذرة، ولو كنت فعلتها في باطن صخر، أو في السماوات، أو في الأرض» سوف يأتي الله بها.

وهذا فيه تربية على المراقبة والعبادات القلبية، كما ذكرنا في وصية النبي ﷺ لابن عباس، حين قال له: «**يا غلام، إني**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ، لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

هنا علمه القضاء والقدر بأوضح طريقة، مع تجنب الفلسفة الكلامية، والعبارات الغامضة، والمباحث السخيفة التي أهلكت الناس، وإنما بين له النبي ﷺ مراتب القدر واضحةً جليةً، وعلمه أن يستعين بالله وحده، ويسأل الله ﷻ وحده، ولا يدعو سواه، وأن يحفظ الله ﷻ، ويراقبه، ويحفظ سمعه وبصره ويده ورجله، وأن الله يحفظه بذلك، وأن الله سوف يجازيه على ذلك بأن يجده عند الشدة معينًا له، كما في قوله ﷺ، في بعض ألفاظ الحديث-: «**تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك**

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه العلامة الألباني في «تخريج المشكاة». وقد سبق تخريجه.

في الشدة»[1] وهكذا، فنجد التربية الإيمانية الاعتقادية، من أهم ما يلزم المربي، ومن أهم ما يلزم الأب والأم أن يعلموه لأبنائهم، وإنما ذلك يتم بالأسلوب القرآني والنبوي، لا بالأسلوب الكلامي، ولا بمجرد التلقين، ولا تظن أنه بمجرد أنه حفظ العقيدة الطحاوية -مثلًا- كفاه ذلك.

ليس المطلوب -فقط- أن يتقن كل مسألة من مسائل الاعتقاد لفظًا، بل لابد أن يتأثر القلب بها، لا مجرد أن يعرف كيف يتكلم، أو كيف يرد على الشبهات، فالمسائل الاعتقادية لابد فيها من الأمرين معًا: لابد أن يعرف الإنسان كيف يقول؟ وكيف يعتقد؟.

ولابد أيضًا أن يعرف كيف يرجو الله؟ وكيف يحبه؟ وكيف يخافه ويراقبه ﷻ؟، وكيف يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ﷻ؟، وكيف يعرف أسماء الله وصفاته، ويتأثر بها ويتعبد لله ﷻ؟،

(١) زيادة -للحديث السابق- عند أحمد (١/ ٣٠٧) والحاكم (٣/ ٦٢٣، ٦٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال العلامة الألباني في «ظلال الجنة»: «عزاها السيوطي لأمالي ابن بشران عن أبي هريرة فقط، وصحح العلامة الألباني رضي الله عنه هذه الزيادة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «صحيح الجامع» (٢٩٦١).

وكذلك كيف يعرف الشرك ويتركه، ويعرف التوحيد ويأتيه؟، ويتعبد لله ﷻ بأنه الرب الإله المعبود، الذي له كل معاني الكمال وله الأسماء الحسنى، والصفات العلا ﷻ.

الوصية بالوالدين:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[لقمان: ١٤]

نلحظ هنا تغير طريقة الخطاب، فلم يقل: « قال لقمان لابنه: أطع والديك، أو بر والديك، أو استوص بوالديك»، وإنما ذكر ربنا ﷻ في طريقة الخطاب أنه خطاب منه ﷻ، وهو ضمن وصية لقمان، ولكن أخرجها لقمان في صورة أنها أمر الله ﷻ، واجهه به ليعلم أن بر الوالدين أمرٌ من الله، ليس يأمره أن يبره لأجل مصلحته، أو لأجل حاجته هو، وإنما يقول: أن الله هو الذي أمرك، وهو الذي وصاك بوالديك. وذلك لكي لا تكون طاعة الولد لوالديه، واستيصاؤه خيراً بهما من أجل منفعةٍ ينالها منهما، بل لابد أن يبرهما رغبةً فيما عند الله وطاعةً له.

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:١٤].

وهذا لابد أن يتفكر فيه الكبير قبل الصغير، وأن يدرك كم

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٤٦٤٦

تعبت الأم في حملها وإرضاعها لطفلها؛ وذلك لوجوب شكر هذه النعمة التي أولتها له الأم بفضل الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفًا على ضعف، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤].

والشكر: هو الاعتراف بالنعمة.

وقدم الشكر لله؛ فهو الذي خلق النعمة، وهو الذي أوجدها، وهو الذي هيأ الأب والأم، وقذف في قلوبهم الرحمة والشفقة والحب لولدهما، وهو ﷻ الذي جعلهما يتحملان، كل ذلك من فضله ﷻ، ولو شاء لنزع منهما الرحمة، فلألقيا ولدهما بلا قدرة من الولد على الامتناع، لكن الله هو الذي جعل ذلك في قلب الأم والأب حتى نشأ الولد.

والشكر لله ﷻ وللوالدين علامة سعادة الإنسان.

قال سفيان بن عيينه رضي الله عنه: «من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما»، بمعنى: أن الصلوات افترضها الله لّا خمسًا شكرًا لنعمته، فكذلك يدعو لوالديه خمس مرات، كما وجب عليه أن يتعبد لله خمس مرات في اليوم والليلة.

وجاء الأمر بشكر الله ﷻ بعد ذكر أمر الحمل والرضاعة؛ لبيان أن هاتين النعمتين العظيمتين هما السبب في وجود الإنسان في هذه الحياة، فبعد أن كان الإنسان عدمًا محضًا، يقدر الله ﷻ اجتماع مني الرجل مع بويضة المرأة، ومن ملايين الحيوانات المنوية ينجح واحد فقط في تلقيح البويضة، لتتكون النطفة (وهي عبارة عن خلية واحدة)، وكان هناك ملايين الاحتمالات، فكل حيوان منوي احتمال لإنسان آخر؛ فاشكر الله ﷻ على أنه اختارك لتكون في هذه الحياة، ثم بقدرة الله ﷻ تنقسم هذه الخلية حتى يتكون منها آلاف الخلايا معلقة في جدار الرحم؛ وهذه هي العلقة، والتي تتحول بدورها إلى ما يشبه قطعة اللحم التي تمضغ، -وهي المضغة-، ثم يخلق الله من هذه الآلاف من الخلايا الأعضاء والعظام، ثم يكسو هذه العظام لحمًا، ليتكون إنسانٌ كاملٌ، حجمه أصغر من حجم أنملة الإصبع، وذلك بدءًا من اليوم الثاني والأربعين حتى اليوم السادس والخمسين من الحمل، ثم ينمو ويكبر حجمه، ويستمر على ذلك إلى الشهر التاسع، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾

[المؤمنون:١٢-١٤].

والإنسان في مراحل الحمل هذه، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فأنت ترى من وُلِدَ أعمى، وهذا يولد أصم، ومنهم من يموت قبل ولادته، والبعض يولد صحيحًا كاملًا، فهلا شكرنا الله ﷻ على هذه النعم العظيمة!

: ţ ȜĦǸ ȴ ǩƘƛƥ ȜƘ ƨ ǪǩƘƛƥ Ɨ ǪǢǩƘƛ ȜǸ Ǧ ǽ :Ƹ Ǧ ǂ ǩĦƥ

فالشكر يكون بالقلب، باستشعار الفقر التام إلى الله ﷻ، فنحن نولد قهرًا، ونموت قهرًا، ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله ﷻ.

كذلك الشكر يكون باللسان، كما كان يقول النبي ﷺ في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين»[١].

(١) رواه الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها (١/ ٣٤٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في «التلخيص»: «على شرطهما». وقد ورد في «صحيح مسلم» (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ «سجد وجهي للذي خلقه صوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين».

وكذلك الشكر يكون بالجوارح: بتصريفها في طاعة الله ﷻ، فالله هو الذي خلق لك سمعًا وبصرًا، فلا تستمع إلى ما حرم الله، ولا تنظر إلى ما حرم الله، ولا تمش إلى الحرام، ولا تفعل بيدك الحرام.

وبعد أن يولد الإنسان، يخلق الله في صدر أمه لبنًا يرضع منه المولود حولين كاملين، وهو لبنٌ لا مثيل له، فهو مهم جدًّا لصحة الإنسان ونموه، ويؤثر في صحته وعقله طوال حياته، فنشكر الله ﷻ على هذا الرزق، الذي لا مشقة فيه ولا نفقة، فاللهم لك الحمد ولك الشكر، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

وبعد أن أمر الله بشكره، أمر بشكر الوالدين، لأن شكر الوالدين هو من شكر الله ﷻ، كما قال النبي ﷺ: «**من لا يشكر الناس، لا يشكر الله**»[١].

وشكر الوالدين صورة من صور البر بهما، والشكر لله وللوالدين هو علامة سعادة الإنسان.

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٠١).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٠٠٠٤٦١٤٦

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]. نبه على ذلك، من أجل أن يكون تحصيل الثواب من الله واجتناب عقابه ﷻ، هما هدف ذلك الابن المربي، لا أنه يريد ثوابًا من والديه، أو يخاف عقابًا منهما، لذا يحن إليهما -ككثير من الناس، إنما يتوب لوالديه لهبةٍ زائدة، أو لعطايا حسنة، أفضل من غيره من الأولاد، أو خوفًا من بطشهما، أو غير ذلك- إنما يفعل ذلك؛ لأنه إلى الله يرجع وإلى الله يصير، فسوف يحاسبه الله ﷻ على عقوقه لوالديه -إن عقهما- وعلى إحسانه إن أحسن، فلابد أن يخلص لله ﷻ العمل.

وفي هذا أيضًا من التربية الاعتقادية: الإيمان بالآخرة، فأنت تلحظ أصول الإيمان جليةٌ في هذه الوصية الجامعة العظيمة.

فلابد من الإيمان بالآخرة، وأن يبثه ذلك ضمن كلامه في كل المواضع: في قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان:١٦] فسوف يحاسبك عليها في الآخرة، وكذلك في قوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:١٥].

نهى الله ﷻ عن طاعة الوالدين في الشرك، وجاءت هذه الآية بعد الأمر ببر الوالدين، لكي لا يظن أحدٌ أن طاعة الوالدين مطلقةٌ، بل الطاعة تكون في المعروف، كما قال النبي ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»(١)، وقال أيضًا: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»(٢).

وأكثر الأمم ضلوا بسبب اتباع الآباء، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وهؤلاء لو بحثوا عن الحق لاهتدوا إليه.

وهذا التقليد الأعمى ليس مقصورًا على الشرك فقط، بل تجد أن أصحاب البدع والضلالات، هم كذلك يحتجون بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون هذه البدع.

والتقليد الأعمى تجده كذلك للأحبار والرهبان والكبراء والرؤساء وشيوخ الضلال؛ وذلك لأجل أن ينال المقلد المكانة

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٦٦) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

الرفيعة عند هؤلاء، ليحققوا له شهواته الدنيئة، من حب المال والجاه والسلطان؛ فيؤدي ذلك بهم جميعًا إلى النار -والعياذ بالله- كما قال الله ﷻ عنهم بعد أن دخلوا النار: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٧،٦٨].

وهلك جنود فرعون معه، حين اتبعوه وانساقوا وراءه بغير هدًى ولا بصيرةٍ، قال ﷻ عنهم: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٨،٧٩].

فحرف الباء في كلمة ﴿ بِجُنُودِهِۦ ﴾، يدل على أن فرعون كان يسوقهم وهم مطيعون له، كما تساق البهائم.

وفي الآية إشارة، إلى أن المعلم والمربي يجب عليه أني يعلم الأبناء، أنهم لو وجدوه على خطأ ينبغي أن ينصحوه بأدب واحترام، لا كما يفعل بعض المربين، حين يعلم الأبناء أن الأوامر كلها حتمية التنفيذ، أو أنه طالما أنه الشيخ أو العالم، فإنه لا يخطئ أبدًا، وبالتالي يجب على الأبناء أن يسكتوا عنه إذا رأوا منه خطأً -حتى لو كان كفرًا- ولا يعترضون عليه!

ولو تأملت خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين تولى الخلافة حيث قال لرعيته: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني».

فكونه خليفة المسلمين، لا يمنع أحدًا من أن ينصحه أو يقومه، بل على الرعية أن يأمروه بالمعروف، وينهوه عن المنكر.

وكونه خليفة المسلمين، لا يمنع أحدًا من أن يعترض عليه إذا أخطأ، بل ينصح ويوجه للصواب.

وكما أنه لا تجوز طاعة الوالدين إذا أمرا بالشرك، فالمعاصي التي هي دون الشرك لا تجوز الطاعة فيها أيضًا، فلا يجوز للابن أن يطيع أباه إذا أمره أن يشتري له (علبة سجائر)، أو (شريط غناء) -مثلًا- أو أن يشغل له جهاز (التلفاز)، طالما كان الأب يشاهد قنوات الفساد، وهذا ليس عقوقًا، بل هذا من البر بالوالدين؛ لأن الابن الذي يساعد أباه على طاعة الله ﷻ وترك معصيته، هو ابن بارٌ بأبيه؛ لأنه يأخذ بيده إلي الجنة، أما الابن العاق لوالديه، فهو الذي يساعد أبويه على دخول النار.

إذا أمر الأب ابنه أن يشتري له وقودًا -كبنزين مثلًا- لكي

يحرق به نفسه، فهل يكون الابن بارًا بأبيه إذا أطاعه في ذلك؟ كل عاقل يجزم بأن هذا ابن عاق لأبيه. فنار جهنم أشد من نار الدنيا، فيجب على الابن أن يساعد أباه على النجاة منها. وكما قال النبي ﷺ: «**لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق**»[١].

وعمومًا، ما كان مستحبًا في الشرع، يجوز تركه طاعةً للوالدين. أما ما كان واجبًا، لا يجوز تركه، كالطاعة في حلق اللحية، أو ترك طلب العلم الواجب، أو الكسب من الحرام.

سؤال:

هل يطيع الإنسان والديه في ترك دروس العلم؟

تحتاج إلى تفصيل، فنقول:

إذا كان هذا العلم فرض عين؛ -كتعلم الإيمان والتوحيد، والعبادة الواجبة؛ كالطهارة والصلاة، وعلم الحلال والحرام، والأخلاق الواجبة-؛ فلا تجوز طاعة الوالدين أو غيرهما في ترك هذا؛ لقوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٢]

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني هذا الشطر من الحديث، وضعف شطره الثاني ولفظه: «وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب»، وانظر «صحيح ابن ماجه» (١٨٣).

وقوله: «**إنما الطاعة في المعروف**»[١].

وإذا كان هذا العلم فرض كفايةٍ قد تعين، لعدم من يقوم به، أو لشروع الطالب في طلبه، وصلاحيته لما لا يصلح له غيره، فإن الشروع في طلب العلم كالشروع في الجهاد، كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فلا تجوز طاعة الوالدين أو غيرهما في تركه أيضًا.

فأما إن كان علمًا غير واجبٍ، ولا يحصل بتركه ضررٌ للابن، فقد ذكر النووي فيه وجهين في لزوم طاعة الوالدين في ترك السفر له[٢]، والصحيح عدم السفر بغير إذنهما؛ لعموم أدلة بر الوالدين.

وعلى أية حال، فعلى الابن الحذر من عقوق والديه في الجملة، والاجتهاد في الإحسان إليهما، والمبالغة في برهما، خاصة إذا عصاهما في طاعة الله الواجبة؛ ليعوض الأثر الناتج عن ذلك.

قال الطبري في قول الله ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد سبق تخريجه.

(٢) راجع «روضة الطالبين» (ج ١٠) و «مجموع الفتاوى» (ج ٣٠).

بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ [لقمان:١٥].

«وإن جاهدك أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك -ولا شريك له تعالى ذكره علوًا كبيرًا- فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك به».

وكلمة ﴿ جَٰهَدَاكَ ﴾: تدل على بذل أعظم الجهد في إخراج المسلم عن دينه، كأن الوالدين يجاهدان من أحل أن يكون الأبناء مشركين.

وليس الوالدان المشركان فقط هما اللذان يبذلان هذا الجهد، بل كل أعداء الإسلام يبذلون كل ما في وسعهم، لإخراج المسلمين من دينهم، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة:٢١٧]، ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ [البقرة:١٢٠].

وحملات التنصير تذهب للشرق والغرب تحت غطاء الإغاثة الإنسانية، لإخراج المسلمين من دينهم. ولكن مع كل هذه الجهود، إلا أن قليلًا جدًّا من المسلمين من يرتد عن دينه؛ وذلك بسبب الرصيد الهائل للإيمان، وهو الفطرة التي فطر

الله الناس عليها، قال ﷻ: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، وقال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان:١٥] استثناءٌ من النصوص الواردة في عدم جواز مصاحبة الكفار؛ كما قال رسول الله ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا»(٢).

والمصاحبة هنا؛ لأن الإنسان فطر على حب الوالدين، والإحسان إليهما، فيحبهما من جهة الأبوة، ويبغضهما من جهة الكفر؛ لقول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة:٢٢].

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي (٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٤١).

والمصاحبة بالمعروف تقتضي الإحسان إليهما، وعيادة مريضهما، وإعطاء الفقير منهما، وكل الصور المعروف الممكنة.

والبر والقسط مأمورٌ به شرعًا مع أهل الملل الأخرى، قال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، وفي مسند الإمام أحمد، عن عبدالله بن الزبير، قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنة أبي بكر بهدايا -ضباب وأقطٍ وسمن-، وهي مشركةٌ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية [الممتحنة:٨]، فأمرها أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها[(١)].

(١) رواه أحمد (٤/ ٤) والحاكم (٢/ ٥٢٧) من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح»، وجاء في «صحيح البخاري» (٥٩٧٨) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبةً في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: «نعم». =

وهذا البر والقسط مع الوالدين آكد منه مع غيرهما، وأعظم البر بالوالدين الكافرين، هو دعوتهما إلى دين الله ﷻ، كما فعل نبي الله إبراهيم مع أبيه آزر، والدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، و والله لو أن الأبناء يرون آباءهم الكفار، لأسلم الآباء طواعيةً، حين يرون في أبنائهم نموذجًا إسلاميا على أرض الواقع، لكنك اليوم قد ترى من ينسب للالتزام وهو في نفس الوقت يسيء إلى أبويه، فكيف يقبل الأبوان على الالتزام؟! بل قد يتحول الأب والأم حربًا على الأبناء في الالتزام، بسبب الصورة السيئة التي يراها الأبوان في أولادهم.

= قال ابن عيينه: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة:٨].

دار الراشدين للنشر والتوزيع

اتباع سبيل المؤمنين:

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥]

قال الطبري في تفسيره: «أي اسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدًا ﷺ، فإن إلى مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته». انتهى كلامه رحمه الله.

هنا يأمر الله ﷻ باتباع سبيل المؤمنين، والسير على نهجهم وطريقتهم، وأولى الناس بالاتباع هم الأنبياء، وعلى رأسهم محمد ﷺ، ثم صحابته الكرام -رضوان الله عليهم-؛ لأن اتباع أي سبيل آخر، يؤدي إلى النار -والعياذ بالله- كما قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

خط رسول الله ﷺ خطًّا، وخط خطوطًا أخرى على جانبي هذا الخط، ثم قال: «**هذا سبيل الله، وهذه سبل، على كل سبيل**

منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣](١).

وهذه الآية من ضمن وصايا لقمان لابنه، وكأن لقمان يقول لابنه: إن الله يأمرك أن تتبع سبيل من رجع إلى الله ﷻ. وهذا إرشاد للأبناء أن يصحبوا الصالحين، فصحبة الصالحين تجلب كل خير في الدنيا والآخرة، فالابن لو صاحب الصالحين، فإن ذلك إضافةٌ وصقلٌ للتربية الإيمانية التي تربى عليها في البيت؛ وعصمةٌ له من أصحاب السوء، الذين يدعونه إلى معصية الله ﷻ، وقد قال النبي ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ

(١) رواه أحمد (١/ ٤٣٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «تخريج المشكاة».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي (٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٤١).

سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥] التربية على الإيمان باليوم الآخر، كما قال في الآية التي قبلها: ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤].

وهذا يشير إلى أهمية تكرار النصيحة والموعظة، ولو في نفس الموضوع؛ لأن الإنسان من طبيعته النسيان والغفلة، والله ﷻ قال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥].

والتربية على الإيمان باليوم الآخر، ليست تعقيدًا ولا تشددًا، كما يقول بعض الجهلة الذين كلما سمعوا الكلام عن القبر والحساب والجنة والنار يقولون: « دعونا من ذلك»؛ أو يقولون: «دعونا نعيش حياتنا»، والحق أن العيش الحقيقي هو عيش الآخرة، وهذا هو المستقبل، الذي يجب على الأب أن يؤمنه لنفسه ولأبنائه، لا مستقبل الدنيا الذي يهتم أكثر الناس بتأمينه، دون تأمين مستقبل الآخرة؛ فالدنيا وإن طالت فإنها إلى زوال، ولو غرس ذلك في الأبناء، فإنهم -وإن غابوا عن أعين آبائهم- سيكونون أحرص على طاعة الله وأبعد عن معصيته؛ من منطلق أنهم تربوا على أنهم سيحاسبون على ذلك.

وهذه التربية من أهم أسباب صلاح الدنيا؛ فلو أن

كل موظفٍ وكل طبيبٍ ومهندسٍ وعاملٍ أتقن عمله، من منطلق أنه سيحاسب على ذلك، لتغير حالُ الأمة وعاد إليها عزها ومجدها.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦٤٦

التربية على المراقبة:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

[لقمان: ١٦]

يعلم لقمان ابنه في هذه الموعظة أمر المراقبة، فيقول له: «لو أنك فعلت معصيةٌ -ولو كانت مثقال ذرة- وكنت وقت فعلها مستخفيًا عن الناس، في باطن صخرة، أو في السماوات، أو في الأرض، فإن الله ﷻ يعلمها، وسيأتي بها يوم القيامة، وتوضع في ميزانك؛ فاحرص على مراقبة الله، واجتنب معاصيه».

وهذه التربية على مراقبة الله ﷻ، هي من أهم الأمور التي يجب أن تغرس في الأبناء؛ لأن الأبناء إذا تربوا على مراقبة الأب والأم -فقط- فقد يخالفون شرع الله في حال غياب الأب والأم عنهم، وعند خروجهم من البيت، خصوصًا أن أبناءنا يتعرضون لتيارات مختلفة حين يخرجون خارج المنزل: فهناك أصحاب سوء يجرونهم إلى معصية الله ﷻ،

وهناك مناهج منحرفة تدرس لهم في المدرسة. فإذا تربى الأبناء على أن الله يراهم -سواء كانوا في البيت أو الشارع أو المدرسة- فهذا هو صمام الأمان في حال غياب الأب والأم، وهذا يؤكد المعنى الذي ذكرناه من قبل:

أن البيت هو مكان التربية الأول والأهم، وأن الطفل يتأثر بما تعلمه في البيت أكثر مما يراه ويسمعه خارج البيت.

وفي الغرب يربون أبناءهم على الحرية: أن يفعل ما يشاء، -حتى لو كان كفرًا وفسوقًا وفجورًا- بلا رقيب ولا حسيب، ويريدون أن ينقلوا هذه الثقافة إلى بلاد المسلمين.

وهذه التربية على مراقبة الله ﷻ في الصغر، هي التي تجعل الأبناء -إذا شبوا واستقلوا بحياتهم- ثابتين على طاعة الله ﷻ.

وأثر هذه التربية ليس قاصرًا على العبادات فقط، بل الأمر يمتد أثره في كل نواحي الحياة: فهذا طبيب يراقب ربه في عمله، وهذا العامل يتقن علمه في مصنعه، لعلمه أن الله يراه، والمزارع في حقله، والتاجر لا يغش في تجارته وميزانه، لأنه تربى في صغره على مراقبة الله ﷻ.

فلو خرج من كل بيت مسلم أفراد بهذه الصفات، لصلحت أحوال المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فضلًا عن انتشار الدين، ودخول غير المسلمين في الإسلام، إذا رأوا أمامهم نموذجًا للإسلام على أرض الواقع، وكم من شعوب دخلت في دين الله ﷻ، لما رأت في التاجر المسلم الصدق والأمانة، مثل شعوب جنوب شرق آسيا، التي دخلت الإسلام على يد تجار مسلمين.

والفساد الذي نراه اليوم، -وقد طال كل نواحي الحياة- سببه قلة من يراقب الله ﷻ في عمله في الهيئات والمؤسسات، خصوصًا، مع عدم وجود المراقبة على الموظفين، فترى منهم من يأخذ الرشوة، ومن يؤخر مصالح الناس، ومن يهرب أثناء العمل، فأما لو كان هناك تفتيشٌ عليهم، أو حضر المدير، فالكل يظهر الانضباط، فإذا ذهب مرة أخرى، عاد الفساد ليأخذ مكانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا تأملت قصة الجارية، التي عاشت في عهد عمر بن الخطاب، حين أمرتها أمها أن تخلط اللبن بالماء، فأبت الجارية أن تفعل ذلك، فقالت الأم: «إن عمر لا يرانا»، فقالت الجارية:

«إن كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا»؛ لو تأملت القصة لعلمت أثر التربية الإيمانية في صلاح الفرد والأسرة والأمة كلها.

ومما ستفاد من هذه الآية: أن يعلم الإنسان أنه سيحاسب على مثاقيل الذر من عمله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧،٨].

ولهذا نهى النبي ﷺ عن احتقار المعروف، فقال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقي أخاك بوجه طلقٍ**»(١)، فلو كان المعروف مثقال ذرةٍ، فلعلها هي التي ترجح بها كفة الحسنات يوم القيامة.

وكذلك، حذر النبي ﷺ من محقرات الذنوب، وهي التي يستصغرها الإنسان ولا يعبأ بها، فقال ﷺ: «**وإياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنهن يتجمعن على الرجل حتى يهلكنه**»(٢).

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقال العلامة الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٧٠): «صحيح لغيره».

وكما قال بعض السلف: «لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

فيجب على الأب أو المربي، إذا رأى الصغير يفعل شيئًا يخالف شرع الله ﷻ، أن يقول له: «إن الله يراك وأنت تفعل كذا، وسوف يكتب ذلك في صحيفة سيئاتك».

وكذا لو فعل فعلاً حسنًا، -من صلاة وصيام- فيقال له: «إن الله يراك حين تفعل ذلك، وسوف يكتب ذلك في صحيفة حسناتك، ويدخلك بسببه الجنة».

وإيمان العبد بأن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على سره وعلانيته، وأنه ﷻ لا يظلمه مثقال ذرة، هو أثرٌ من آثار إيمانه بأسماء الله وصفاته، فأسماء الله (السميع والبصير والرقيب والعليم والخبير والشهيد والحسيب)، تملأ القلب مراقبةً لله ﷻ في الحركات والسكنات، وتؤدي بالعبد إلى أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله ﷻ يراه.

يا بني أقم الصلاة:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

[لقمان: ١٧]

بعد أن تعلم الابن التوحيد وكيف يتجنب الشرك، وتعلم بر الوالدين، وطاعتهما في غير معصية الله ﷻ، جاء الأمر بعد ذلك بإقامة الصلاة.

وهذا الترتيب في التعليم -الذي فيه البدء بالتوحيد ثم الصلاة-، هو الذي أمر به النبي ﷺ معاذًا لما أرسله إلى اليمن، قال ﷺ: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم...**»[(١)] الحديث.

والصلاة، هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وإذا تعلم المسلم العقيدة الصحيحة، وتعلم توحيد الربوبية، والإلهية، والأسماء والصفات، كان للصلاة

(١) رواه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

شأنٌ آخر، من حيث حضور القلب والخشوع، وهو الهدف المنشود في الصلاة.

ومثالًا على ذلك: قولك في سجودك: «سبحان ربي الأعلى»[(١)]. فاستحضارك لمعاني الربوبية، -من أن الله هو خالقك، ورازقك، وهو الذي يحييك ويميتك، ويضرك وينفعك، وأنه له الملك والملك التام، وأنه له وحده حق التشريع-، كل هذه المعاني تجعل للسجود لذةً وحلاوةً، لا يجدها من لا يستحضر هذه المعاني.

وكذلك صفة الله بأنه (الأعلى)، والتي تشمل: علو الذات، وعلو الشأن والصفات، وعلو القهر، فهو الذي استوى على عرشه، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

فإذا استحضر العبد هذه المعاني في كل أذكار الصلاة، وفي كل حركة، -من قيام وسجود وركوع-، أصبحت الصلاة له قرة العين، كما قال النبي ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٢)]،

(١) انظر «صحيح مسلم»: (٧٧٢).

(٢) رواه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وصححه العلامة الألباني في «تخريج المشكاة».

وقال ﷺ: «**يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها**»[(١)]؛ ولهذا «كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه»[(٢)].

أيضًا، قد جاء الأمر بالصلاة بلفظ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:١١٠،٨٣،٤٣][النساء:٧٧][يونس:٨٧][النور:٥٦][النور:٣١] [المزمل:٢٠]؛ لأنها كالبناء الذي يحتاج أساسات وأعمدة، لا أنها مجرد حركات مجردة عن حضور القلب.

وفي هذه الآية، يخبر الله ﷻ عن لقمان، أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، فالأب لا يهتم -فقط- بأن الابن أدى الصلاة في وقتها، أو في المسجد، بل لابد أن يعلم ابنه كيف يقيم الصلاة، فيعلمه معنى الركوع والأذكار، بحسب فهمه وإدراكه.

وأنت ترى اليوم كثيرًا من الآباء لا يسأل ابنه: هل صلى أم لا؟ فيترك له الحبل على الغارب، حتى يشب الابن وهو لا يعرف كيف يصلي! وجل اهتمام الأب والأم، هو المستقبل الدراسي، وهل حصل على درجة عالية في دراسته أم لا؟!، ويهتمون بملبسه ومأكله فقط! وذات مرة أوقفت عدة تلاميذ

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

دار العلماء الراسخين للنشر والتوزيع

بجوار المسجد في طريقهم إلى مدرستهم، -بعد شروق الشمس- وسألتهم: من منكم صلى الفجر اليوم؟ فلم يوجد إلا وحدًا صلاها في البيت! فانظر: كل هؤلاء لم يسألهم آباءهم عن الصلاة! والله ﷻ قد قال لنبيه ﷺ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه:١٣٢]، وقد مدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٤،٥٥]، وقال النبي ﷺ: **«مروا أولادكم بالصلاة وهم أولاد سبعِ سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشرٍ، وفرقوا بينهم في المضاجع»**[(١)]، فلا يؤمر بالصلاة قبل السابعة، ولكن إذا أكمل سبع سنين قمرية، ثم يضرب عليها إذا تركها بعد العاشرة، فإذا بلغ سن التكليف يكون قد تعود الصلاة.

وينبغي للأب أن يصطحب ابنه إلى المسجد؛ لكي يتعود الصلاة في الجماعة، ويعلمه آداب المسجد، حتى لا ينتهك حرمته.

(١) رواه أبو داود (٤٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال العلامة الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٦٦): «حسن صحيح».

وليس الأمر بإقامة الصلاة مقصورًا على الفرائض فقط، بل يرغب الأب أهل بيته في النوافل، -خصوصًا- قيام الليل، كما قال النبي ﷺ: **«رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت، نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى، نضحت في وجهه الماء»**[(١)].

والنبي ﷺ لما دخل ذات ليلة على عليٍّ وفاطمة، قال لهما: **«ألا تصليان؟»**[(٢)]، وكان النبي ﷺ في بيت ميمونة، فقال لها: **«أصلى الغلام؟»**[(٣)]، فقام ابن عباس يصلي معه.

وهذه النصوص، تدل على أن الرجل لو صلى قيام الليل في الجماعة مع أهل بيته كل يوم، لم يكن ذلك بدعةً، بخلاف الاجتماع على القيام في المسجد بصفة منتظمة، وتحديد يوم لذلك، فهذا لا يشرع إلا في رمضان، في صلاة التراويح.

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠) وأبو داود (١٤٥٠) والنسائي (٣/ ٢٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال العلامة الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٨٧): «حسن صحيح».

(٢) رواه البخاري (١١٢٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود (١٣٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٠٨). وقد سبق تخريجه.

وصلاة النافلة في البيت من أسباب حصول الخير والبركة في البيوت؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده، فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته؛ فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرًا**»(١).

وهذا الخير وهذه البركة، من الأشياء المفقودة في بيوت المسلمين، بسبب غياب هذه الطاعات.

وإقامة الصلاة، هي أحد صفات جيل النصر المنشود، الذي به تفتح البلاد وقلوب العباد، ويمكن الله لهم في الأرض، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج:٤١]، فهم يقيمون الصلاة بأنفسهم، ويقيمونها في المجتمع كله بدعوة الناس إليها.

فلو أن أبناء المسلمين تربوا على إقامة الصلاة، لخرج لنا جيلٌ يمكن الله له في الأرض، وينصره على عدوه، لكن كيف ينزل الله النصر على أمةٍ قد خلت مساجدها من المصلين، إلا القليل منهم، خصوصًا صلاة الفجر؟! بل كيف ينزل الله النصر على أمةٍ، كثيرٌ من شبابها قد ترك الصلاة بالكلية،

(١) رواه مسلم (٧٧٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

صفحة ٧٨ اسود

وجلس في المقهى وهو يسمع النداء وكأنه لا يسمع شيئًا؟! وإلى الله المشتكى.

وقد قال (موشيه ديان) وزير الدفاع اليهودي عام ١٩٤٨ م لمجموعة من الشباب الفلسطيني: «إنه سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون على اليهود، وذلك حينما يكون عدد المصلين في صلاة الفجر مثل عدد المصلين في صلاة الجمعة».

فأعداء الإسلام يعلمون أن قوة المسلمين تكمن في تمسكهم بدينهم؛ ومن ثم سخروا كل الوسائل لصرف المسلمين عن طاعة ربهم: بوسائل الإعلام المفسدة، والمخدرات، والنساء، وشغلوا الأبناء -فضلًا عن الآباء- بمباريات الكرة واللهو واللعب، فترى المئات من الناس يسهرون حتى الصباح احتفالًا بالفوز بكأس الأمم الإفريقية، ولم يفكر أحدٌ منهم في قيام الليل، أو حتى صلاة الفجر! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونقول لكل أبٍ وأمٍّ وكل مربٍّ: لو علمت ابنك الصلاة، فكل ركعة يركعها في ميزان حسناتك، وكذا قراءة القرآن، وسائر الأعمال الخير، فكيف تغفل عن مثل ذلك، وأنت يكتب لك به أجر إلى يوم القيامة؟! فابنك يعلم أبناءه، ثم هؤلاء يعلمون

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

صفحة ٧٩ اسود

أبناءهم، وهكذا، جيل بعد جيل، ويكتب لك الأجر بذلك وأنت في قبرك، كما قال النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان، انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»(١)، فتعليم الصلاة والقيام وقراءة القرآن وكل وجوه الخير، يندرج تحت العلم الذي ينتفع به، وثمرة ذلك: الولد الصالح الذي يدعو له.

فلو كان عندك كثيرٌ من الأبناء، لكان أجرك مضاعفًا، ولا تسمع لهؤلاء الذين ينادون بتنظيم الأسرة وتحديد النسل، فالله ﷻ هو الرزاق، فيرزقك ما تنفق به على أبنائك، ثم يكتب لك الأجر، إذا ربيتهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ونقول للأم التي تسهر وتتعب، -خصوصًا لو كان عندها أطفال صغار، أو رضع مما قد يفوت عليها بعض الطاعة_ نقول لها: انتوي برعايتك لأبنائك، أن يكونوا ممن يطيعون الله ﷻ والله ﷻ لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

(١) رواه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

[لقمان: ١٧]

بعد أن تعلم الابن التوحيد وبر الوالدين وإقامة الصلاة؛ يرشد لقمان ابنه إلى أن يدعو إلى الله ﷻ، وينشر هذا الخير الذي تعلمه وعمل به إلى الناس من حوله، فيأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لأن القضية ليست أن تلتزم -فقط- والدنيا حولك تعج بالمنكرات، دون أن تغير شيئًا، فهذا في حد ذاته خطرٌ على التزامك؛ لأنك لو لم تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر، أوشكت أنت أن تقع في هذه المنكرات، فبادر أنت وادع الناس إلى الحق، قبل أن يدعوك هم إلى الباطل.

وانظر، كيف يغرس في الطفل منذ صغره أن يكون إيجابيًا، لا يسكت حين يرى المنكر، ويجعل قضية الدين ونصرته ودعوة الناس إلى الالتزام به، هي من أهم قضاياه الأساسية التي يعيش من أجلها، لا أنه يعيش من أجل أن يحصل

الدرجات العالية في الدراسة، أو يتفوق في الرياضة الفلانية، مما يؤدي إلى نشوء أجيال لا تعرف شيئًا عن دينها، فضلًا عن أن تدعو إليه.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حق الأبناء، يكون على قدر فهمهم وإدراكهم، كأن يدعو زملاءه للصلاة، أو ينهاهم إذا سمع منهم سبًا أو شتمًا، أو رأي أحدهم يستمع إلى الغناء، ويدعوهم إلى قراءة القرآن، وهكذا.

وانظر: لو خرج من كل بيت مسلم أبناءٌ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ لتحقق النصر بإذن الله، ولحصل التمكين لأهل الإسلام في الأرض، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

والأمة الإسلامية إنما نالت الخيرية، بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، مع إيمانها بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وعلق الفلاح للمؤمنين، إذا كانوا قائمين بهذه المهمة العظيمة،

فقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وهذا يدل على أنها لا تفلح ولا تنجح إذا ضيعت هذا الواجب.

وبين -سبحانه- أن من صفات المؤمنين والمؤمنات اللازمة لهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [بالتوبة:٧١].

ويفهم من هذا: أن الإيمان الواجب، لا يحصل إلا لمن هذه صفته. ويفهم منه أيضًا: أن الرحمة لا تحصل إلا لمن قام بهذه الأمور جميعًا.

وتدل الآية الكريمة، على أن واجب الحسبة والدعوة ليس خاصًّا بالرجال، بل هو عامٌّ للرجال والنساء، كلٌّ بحسب قدرته وعلمه.

وأخبر -سبحانه- أن من أسباب لعن الأمم المتقدمة -خاصةً بني إسرائيل-، تركهم لهذه الفريضة، تحذيرًا لنا من الاتصاف بصفاتهم، أو أن نفعل مثل فعلهم، فنستحق مثل جزائهم، فقال ﷻ:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٨٠].

فلما صار المنكر بين المسلمين لا يتناكر ولا يستغرب، بل أصبح هو المعروف، وصار المعروف منكرًا -عندهم- مستغربًا، ووالوا أعداء الله الذين كفروا خاصةً اليهود والنصارى؛ حل بهم من سخط الله ونقمته ما لا يخفى على متأمل: من تسلط أعدائهم، وانتهاك حرماتهم، وإذلال أممهم وشعوبهم، وإصابة الأمة في مقدساتها، كالمسجد الأقصى وغيره. نسأل الله أن يفرج كربات المسلمين.

وعودة المسلمين إلى عزهم وكرامتهم، لا تحصل إلا بسلوك السبيل الشرعي الذي سلكه أنبياء الله -صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين-، وهو السبيل الذي بدأ به النبي ﷺ في الدعوة إلى الله Ü، فبدأ بالأمر بأعظم معروف

-وهو التوحيد- والنهي عن أعظم منكر -وهو الشرك بالله-. فكان هذا هو السبيل الذي علينا أن نسلكه، إذا أردنا أن يرتفع ما بنا من أنواع الذل والهوان.

وقد جعل الله النجاة في الدنيا والآخرة، لمن نهى عن الفساد في الأرض، وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦]، وقال -تعالى- في قصة أصحاب السبت: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥].

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يترتب عليه شيءٌ من الأذى؛ جاء الأمر بعد ذلك بالصبر، في قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان:١٧]، فمن الناس من يستجيب مباشرةً إذا أمرته بالمعروف أو نهيته عن المنكر، ومنهم من لا يستجيب، وقد يضيف إلى ذلك التعرض بالإيذاء للداعي إلى الله، في بدنه أو عرضه أو ماله، وهذا امتحانٌ من الله: هل سيصبر ويستمر في الدعوة إلى الله، أم يتركها خوفًا على نفسه

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

من الأذى؟!.

والصبر لأجل إعلاء كلمة الله، هو أعلى درجات الصبر؛ لذا كان الأنبياء أعلى الناس قدرًا، وأكثرهم صبرًا وتحملًا، في سبيل الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

ورسول الله ﷺ -خير البشر وأفضل الأنبياء - هو أكثر من أوذي في الله، قال ﷺ: « لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحدٌ، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحدٌ»(١)، ولما سئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعدٌ؟ قالت:نعم، بعدما حطمه الناس(٢).

فمنذ بدء دعوته ﷺ وهو يتعرض للإيذاء: فاتهمه كفار

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٨٦) والترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١) من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٢٥).

(٢) رواه مسلم (٧٣٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قريش بالسحر والكهانة والجنون، ووضعوا على ظهره سلى جزور وهو ساجد، وحاولوا اغتياله عدة مرات، وأخرجوه من بلده مكة، وهي أحب البلاد إليه، وقاتلوه وجيشوا الجيوش للقضاء على دعوته، ورموه بالحجارة حتى أدموا قدمه الشريفة، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله.

وكذلك الأنبياء من قبله: فنبي الله نوح، هدده قومه بالرجم وسخروا منه، ونبي الله إبراهيم ﷺ، ألقاه قومه في النار، ونبي الله موسى، هدده فرعون بالسجن والتعذيب، واليهود قتلوا أنبياءهم وكذبوهم.

وغلام أصحاب الأخدود، عرض نفسه للقتل من أجل أن تؤمن أمةٌ بأسرها، وصحابة النبي ﷺ، تركوا ديارهم وأموالهم، وبذلوا الغالي والرخيص في سبيل الله، حتى جاءت عليهم أيام لم يجدوا ما يأكلوه إلا ورق الشجر.

أفلا يكون للدعاة إلى الله في هؤلاء أسوةٌ حسنةٌ، في الصبر على ما يلقون في سبيل دعوتهم؟! قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الممتحنة:٦]، وقال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ

اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

ومهما يصيب الداعي إلى الله من أذى في دعوته، فإنه لا يلبث أن ينصره الله، والدنيا سريعة الانقضاء، وبعد حين يظهر الحق ويزهق الباطل، ولكن لابد من التمحيص والابتلاء.

وماذا يفوتك أيها الداعي إلى الله؟ مدة من الزمن تحبس فيها؟ شيء من المال يؤخذ منك؟ منصب أو وظيفة؟ كل ذلك يهون في سبيل الله ﷻ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يفعل بي أعدائي؟! أنا جنتي معي، بستاني في صدري؛ إن سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله».

فلابد أن تصبر، لإعلاء كلمة الله في مواجهة جحافل الباطل، التي هي بدورها تصبر لأجل الصد عن سبيل الله،

قال ﷻ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦]، فهم يحض بعضهم بعضًا على الصبر، في سبيل الصد عن سبيل الله، ونشر الكفر وفرضه على الناس، وكذلك أعوان الكفرة، من المنافقين والمنافقات، الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، كما أخبر ﷻ عنهم، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، ويفعلون ذلك عبر مناهج منحرفةٍ، يدرسها الأبناء في المدارس، وعبر وسائل الإعلام المفسدة، من قنوات فضائية، ومواقع إلكترونية على (الإنترنت)، فضلًا عن نشر المخدرات والدخان والتبرج، وسائر أنواع المنكرات، ويعلنون الحرب على الحجاب والنقاب، نسأل الله أن ينجي المسلمين من شرهم.

وتربية الأبناء على الصبر من أجل نشر الدين، هي التي تفرز أجيالًا قادرةً -بإذن الله ﷻ- على تحمل الصعاب، وبذل الغالي والرخيص في سبيل إعلاء كلمة الله، لا أن يربى الأبناء على الرفاهية ورغد العيش، والاطمئنان إلى الدنيا والركون

إليهـا، أو لعـب الكـرة، والجلـوس إلـى المقاهـي، وتحصيل الشهوات الأرضية، من النساء والمال والمنصب والشهرة.

وتنبيـه الداعـي إلى الله إلى أنه قد يلقـى أذى في دعوته هو، من أسـباب ثباتـه في دعوته؛ حتـى إذا تعـرض لأذى، لم يكن ذلك مستغربًا عنده؛ لأنه تعلم ذلك سابقًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧] هو أمرٌ عـام بالصبر في كل الأمور؛ فالإنسـان يبتلـى في بدنه أو ماله أو عرضـه أو أهله، فإذا صبر كان الله معه، قـال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] [الأنفال:٦٦].

وقد أمر الله ﷻ بالاستعانة بالصبر فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، وقال تعالـى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

قولـه تعالـي: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمـان:١٧] أي: مـن الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بهـا، ولا يُوَفَّق لها إلا أهل العزائم.

النهي عن الأخلاق المذمومة:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[لقمان:١٨]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا تعـرض بوجهـك عن النـاس إذا كلمتهـم أو كلموك، احتقـارًا منك لهـم، واسـتكبارًا عليهـم، ولكن ألـن جانبك، وأبسـط وجهـك إليهم، كما جـاء في الحديث: «**ولـو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسطٌ**»(١).

قـال ابن عباس: «يقول: لا تتكبر، فتحتقر عباد الله وتعرض عنهـم بوجهـك إذا كلموك». وقـال زيد بن أسـلم: «لا تتكلم وأنت معرضٌ». وقال إبراهيم النخعيُّ: «يعني بذلك: التشدق في الكلام». والصواب: القول الأول.

قال الشاعر -وهو عمرو بن حَنَيٍّ التغلبي-:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا لـه من ميلـه فتقوما

(١) رواه الطيالسـي (١/ ١٦٧) من حديث جابر بن سليم الهجيمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٩٨).

وقولـه تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مختـال معجب في نفسه، فخور، أي: على غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]، وعن ثابت بن قيس بن شماسٍ قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال: «**إن الله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ**»، فقال رجلٌ من القوم: والله يا رسول الله، إني لأغسل ثيابي، فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي. فقال النبي ﷺ: «**ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق، وتغمط الناس**»[(١)]. أخرجه الطبراني عن ثابت بن قيس، وفيه قصة طويلة. انتهى كلام ابن كثير.

قال الطبري في تفسيره: وأصل الصعر، داءٌ يأخذ الإبل في أعناقها أو رءوسها، حتى تلفت أعناقها عن رءوسها، فتشبه بذلك الرجل المتكبّر على الناس. انتهى كلامه رضي الله عنه.

(١) صحيح بلفظ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٦٩) من حديث ثابت بن قيس رضي الله عنه.

في هـذه الآيـة، يربـي لقمان ابنـه على الأخلاق الإسـلامية، فكما رباه تربيةً عقائديةً وعباديةً، فلابد -كذلك- أن يربيه تربية خلقيةً.

فبعـض طـلاب العلـم، يقبل علـى تعلـم العقيـدة والفقه والمصطلـح وغيـر ذلـك مـن العلـوم، ثم هـو يهمـل جانب الأخلاق وتهذيب النفس؛ فيحصل عنده جفاء.

والبعـض الآخر، يهتم بجانب الأخـلاق وتهذيب النفوس وعلـوم الرقائـق، ويهمل بالكليـة العلوم الأساسـية الأخرى؛ وهـذا يـؤدي إلى الجهل بدين الله ﷻ. وتـرى ذلك عند بعض الاتجاهات الإسـلامية التي تنتسـب للدعـوة، وبعض الدعاة تجد منهم من يقلل من شأن العلم والعلماء.

والحـق وسـطٌ بين هـذا وذاك، فالإسـلام دين شـامل لكل الأمور: في العقيدة، والعمل، والسلوك، والمعاملات، والتزكية، هـذه النظرة الشـاملة لديـن الله ﷻ، هـي التي تفرز الشـخصية المسـلمة المتكاملـة، التي تكـون بمثابة العمود الراسـخ، التي لا تقـوم الأمـة بدونه، وهذه الأنـواع من التربية، هـي التي ربى النبـي ﷺ صحابته الكرام عليها؛ لذا قامت على أكتافهم الدولة

المسلمة في أزهى عصورها، وفتح الله على أيديهم البلاد وقلوب العباد.

مما يستفاد أيضًا: أن الاهتمام بالأخلاق والسلوك يأتي بعد العقيدة والفقه، فالمعلم يبدأ مع التلميذ بالأهم فالمهم.

والأحاديث الواردة في فضيلة حسن الخلق كثيرة، منها:

قول النبي ﷺ: «**إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا**»(١).

وقال أيضًا: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(٢).

وقال أيضًا: «**ما من شيءٍ أثقل في الميزان من حسن الخلق**»(٣).

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وحسنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٧٩١).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٢١).

وقال أيضًا: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»(١).

كل هذا الفضل لحسن الخلق؛ لأنه المرآة التي تعكس صورة الإسلام، فإذا رأى الناس حسن الخلق والسلوك، في كل مسلم يتعاملون معه، دخلوا في دين الله طواعيةً، وإن من أسباب تشويه صورة الإسلام فإذا رأى الناس حسن الخلق والسلوك في كل مسلم يتعاملون معه دخلوا في دين الله طواعيةٌ، وإن من أسباب تشويه صورة الإسلام والالتزام، إهمال جانب السلوك والأخلاق ممن ينتسب أحيانًا للالتزام.

وهذه الشمولية في دين الله ﷻ، هي التي يدل عليها قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، فلا حاجة لنا أن نتعلم الأخلاق والآداب من الغرب، أو (الإتيكيت) كما يسمونه.

والعجب من بعض المسلمين الذين يدفعون بأبنائهم

(١) رواه أبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

إلى المدارس النصرانية، بزعم أنها تعلم الأدب والأخلاق الحسنة! ونسي هؤلاء، أنهم يعلمونهم أسوأ الأخلاق على الإطلاق: وهو سب الله ﷻ؛ لأنهم يعتقدون أن المسيح ابن الله، والله ﷻ يقول في الحديث القدسي: « **كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك. أما تكذيبه إياي، أن يقول: إني لن أعيده كما بدأته. وأما شتمه، إياي أن يقول: اتخذ الله ولدًا. وأنا الصمد، الذي لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفؤًا أحدٌ**»(١).

وعن أبي السوار العدوي قال: سمعت عمران بن حصينٍ قال: قال النبي ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخيرٍ**»، فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقارًا، وإن من الحياء سكينةً. فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك؟!(٢).

فانظر كيف أنكر عمران رضي الله عنه على بشير بن كعب، أنه يأخذ عن شيءٍ غير سنة النبي ﷺ، مع أن في سنة النبي ﷺ ما هو

(١) رواه البخاري (٤٩٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٣٧).

أفضل منه.

وانظر، كيف يحذر لقمان ابنه من الكبر، وينهاه أن يمشي متكبرًا، أو يتحدث مع الناس متكبرًا عليهم؛ لأن الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب، و«**لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى**»(١)، ليس التفاضل بالمال ولا بالسلطان والجاه، بل بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

والنبي ﷺ بين معنى « الكبر» حين قال: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»(٢) أي احتقار الناس.

ونهى ﷺ أن يجر الرجل إزاره خيلاء، فقال ﷺ: «**لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاءً**»(٣).

وقال ﷺ: «**يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة، أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكانٍ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة**

(١) جزأ من حديث نبوي شريف رواه أحمد (٥/ ٤١١)، وهو في «السلسلة الصحيحة» للعلامة الألباني (٢٧٠٠).
(٢) رواه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٥٧٨٣) ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أهل النار: طينة الخبال»[١] فالجزاء من جنس العمل.

وقال النبي ﷺ: «**بينما رجلٌ يتبختر يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»[٢].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى:٤٢].

والكبر هو مرض إبليس؛ لأن أول من تكبر على الخلق، هو إبليس، حيث قال: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

وهو نابعٌ من العجب، وثمرةٌ من ثمراته، فيستعلي العبد -أي: يرى نفسه عاليًا على الخلق-، ثم يقوده هذا إلى أن يستعلي على أمر الله -سبحانه-، فيكفر -والعياذ بالله-.

وهذا مرض الملأ من أقوام الرسل المكذبين لهم، قال -تعالى- عن ملأ قوم نوح أنهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٤٠).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧]، وقال عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، وقال ﷻ عن قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال عن قوم فرعون: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨] فكل فكرهم وهمهم: من تكون له الكبرياء في الأرض؟ وظنوا موسى وهارون Å كأنفسهم في طلب العلو، وقال ﷻ عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل:١٤]، وقال عن الملأ من قريش: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وأخبر عن كل أقوام الرسل، أنهم أنكروا عليهم كونهم بشرًا مثلهم. والأدلة على هذا كثيرة في كتاب الله ﷻ.

وفي السنة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ**».

فإذا كان مثقال ذرة من هذا المرض تمنع من دخول الجنة، فكيف بمن امتلأ قلبه كبراً وعلوًا؟! وكيف بمن كان

متكبرًا على أوامر الله سبحانه؟! يمتنع من التزامها، تعاليًا عن الخضوع له، والذل له، والسجود له، مستنكفًا أن تعلو استه رأسه، كما قال قائلهم -والعياذ بالله-!

فهذا الطغيان والكبر الذي تمتلئ به الأرض فسادًا، وتقام من أجله الحروب، وتسفك الدماء، وتنتهك الحرمات.

ولو تأملت، أن خمسة وخمسين مليونًا من البشر، قتلوا في الحرب العالمية الثانية، لأجل فكرة علو الجنس الآري -التي سيطرت على رجل مغرور قاد أمته والناس من ورائه إلى هذه الحرب- لعلمت ما يصنع الكبر في الخلق من الفساد.

ولو تأملت ما يفعله اليهود وأولياؤهم من الأمريكان، ومن يعاونهم من المنافقين والمشركين، لوجدت أن العلو في الأرض هو المحرك الحقيقي لكل هذا الظلم والعدوان في الأرض.

ولو تأملت ما جره (الاستخراب) الغربي على العالم، لاعتقادهم علو الجنس الأبيض على سائر الأجناس، وعلى السود خصوصًا -وهي الفكرة التي ما زالت مجتمعاتهم تعاني منها، ويشقي بها العالي والوضيع والأبيض والأسود- لعلمت

مدى خطر هذا المرض ولزوم التخلص من بالكلية.

وإلا فلا مكان في الجنة لمن لم يتخلص منه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

ومما يعينك على مداواة القلب من هذا المرض: مراجعة ما ذكره النبي ﷺ في التحذير منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨] يدل على خطر الفخر والاختيال والتكبر على خلق الله، فالويل كل الويل لمن لا يحبه الله.

وقد قال ﷻ في الحديث القدسي: «**العز إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني بشيءٍ منهما عذبته**»(١).

وهناك مواطن، يستثنى فيها النهي عن الفخر والاختيال: وهي المواطن التي يغيظ فيها أعداء الإسلام، كما في حديث جابر بن عتيك رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن من الغيرة ما يحب الله، ومن الغيرة ما يبغض الله، ومن الخيلاء ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله. فأما الغيرة التي يحبها الله: فالغيرة في**

(١) رواه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الريبة، وأما الغيرة التي يبغض الله: فالغيرة في غير الريبة. وأما الخيلاء التي يحبها الله: فاختيال الرجل في القتال، واختياله عند الصدقة، وأما الخيلاء التي يبغض الله: فاختيال الرجل في البغي والفخر»[(١)]؛ وذلك لإغاظة الكفار وإلقاء الرعب في قلوبهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

وانظر، كيف ينصح لقمان ابنه أن لا يصعر خده للناس، ولا يمشي في الأرض مرحًا؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور، فتربية الأبناء على فعل ما يحبه الله، وترك ما يبغضه الله، من أسباب ثباتهم على طاعة الله بعد ذلك، وحرصهم على ما يحبه الله، وهذا من أسباب زيادة حب العبد لله وحب الله للعبد، وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يسألون النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله، فقال لهم: «الصلاة على وقتها»[(٢)] الحديث.

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ١٩٤) واللفظ له، كلاهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن جابر بن عتيك وصححه ابن القيم وابن حجر، وحسنة الألباني والأرناءوط.

وإذا كان الله لا يحب كل مختال فخور، فنحن كذلك لا نحب كل مختال فخور، فكل مؤمن يحب من يحبه الله، ويبغض من يبغضه الله، وأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، فالمسلم يحب من جهة طاعته لله، ويبغض من جهة معصيته.

وفي الآية: إثبات صفة الحب والبغض لله -على ما يليق بجلاله وعظمته-؛ فالله ﷻ يحب من تواضع له ومن تواضع مع خلقه، ويبغض كل مختال فخور.

وفي الآية دليل على فضل التواضع، وهو المفهوم من الآية.

وهناك أحاديث كثيرة في فضل التواضع:

قال النبي ﷺ: **«إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ»**[(١)].

وقال النبي ﷺ: **«ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»**[(٢)].

ولما خير النبي ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملكًا نبيًا،

(١) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

قال له جبريل ﷺ: «**تواضع لربك يا محمد**»، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا [١].

وقال النبي ﷺ: «**آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»[٢].

وكان ﷺ ينقل التراب مع الصحابة -رضوان الله عليهم- يوم الخندق[٣].

وكان ينام على حصير، حتى يؤثر في جنبه ﷺ[٤].

وكان يرقع ثوبه، ويخصف نعله[٥]، ويكون في مهنة أهله ﷺ[٦].

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٠٠٢).
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده ورواه البغوي في «شرح السنة» (١١/ ٢٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٥٤٤).
(٤) انظر «صحيح البخاري» (٤١٠٤).
(٥) انظر «صحيح البخاري» (٤٩١٣) و «صحيح مسلم» (١٤٧٩).
(٦) انظر «مسند أحمد» [(٦/ ١٠٦) و (٦/ ١٢١)] و «صحيح الجامع» (٤٩٣٧).

التربية على الخلق الحميد:

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾

[لقمان: ١٩]

بعد أن نهى لقمان ابنه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الحميد، فأمره هنا بالقصد في مشيه، أي يمشي مشيًا ليس بالبطئ المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ [الفرقان:٦٣] أي بالسكينة والوقار.

فالمشي البطئ، قد يؤدي إلى فوات مصالحه وتأخره، وقد يتعطل بذلك غيره من الناس، ممن لهم مصالح عنده.

ولما رأت عائشة أناسًا يمشون ببطء سألت عنهم، فقيل لها: أولئك النساك. (وكأن البعض ظن أن في ذلك قربى إلى الله ﷻ). فقالت ردًا على ذلك: «كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا تكلم أسمع».

و« إذا مشى أسرع» معناه: السرعة المنافية للتماوت.

وكذلك، الإسراع في المشي قد يؤدي إلى حدوث المكروه

والاضطراب، والعجلة من الشيطان.

والتـؤدة مطلوبـة في كل شـيء، إلا في أمـر الآخرة، فيسـرع الإنسان فيما يقربه إلى الله ﷻ.

والقصد في كل الأمور مطلوب، وهذا مثاله في كتاب الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقـان:٦٧]، وقولـه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسـراء:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠].

وقال النبي ﷺ: «**سـددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيءٌ من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**»(١).

وهـذه الوصية ينبغـي أن توجه إلى قائدي السـيارات، فلا يفرطوا في السرعة، التي تؤدي للحوادث الكثيرة التي نراها كل يوم، ويذهـب كثيرٌ من الناس ضحايا لها، وكذلك السـيارات البطيئة، تعطل الطريق، ويتضرر بذلك كثيرٌ من الناس.

وفي الآية بيان أن القرآن يرشد العباد إلى ما ينفعهم في دينهم

(١) رواه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ودنياهـم، فالدين ليس مجرد شـعائر تؤدى في المسـجد فقط، ولا علاقـة لـه بأمور الدنيا، بـل نحن مأمـورون أن نقود الدنيا بالدين، وكذلك: ليس الالتـزام بالدين يكون بالأمور الظاهرة -فقـط- كإعفاء اللحية، وارتداء القميص والحجاب، بل لابد أن يظهر أثر الالتزام بالدين في السلوك والأخلاق والمعاملات، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨] أي: خذوا بشـرائع الإسلام كله. فالإسلام عقيدةٌ وعملٌ وسلوك وأخلاق.

وقولـه تعالـى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمـان:١٩] أي: لا تتكلـف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر فوق الحاجة تكلف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي: غاية من رفع صوته أن يشـبه الحمير في علو صوتـه وارتفاعه، ومع هذا فهو بغيض إلى الله تعالى.

وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسـول الله ﷺ قال: «**ليس لنا مثل السـوء، الذي يعود في هبته، كالكلـب يرجع في قيئـه**»(١). وروى البخاري ومسـلم عن أبي

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا من الشيطان فإنه رأي شيطانًا**»(١).

والحمار مثلٌ في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مجردًا، أنهم يكنون عنه، ويرغبون عن التصريح فيقولون: «الطويل الأذنين» كما يكنى عن الأشياء المستقذرة، وقد عد في مساوئ الآداب: أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة، وكان من العرب من لا يركب الحمار استنكافًا، وإن بلغت منه الرجلة، وكان -عليه الصلاة والسلام- يركبه تواضعًا وتذللًا لله -تبارك وتعالى-، وقال سفيان الثوري: «صياح كل شيءٍ تسبيح إلا نهيق الحمير»(٢).

وأكد المواطن التي ينهى عن رفع الصوت عندها:

عند النبي ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ

(١) رواه البخاري (٢٦٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٣٣٠٣) ومسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات:٢،٣]. فلا يجوز رفع الصوت عند زيارة مسجده ﷺ للسلام عليه.

كذلك: نهى النبي ﷺ عن رفع الصوت بالقراءة، فقال: «**ألا إن كلكم مناجٍ ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضًا ولا يرفع بعضكم على بعضٍ في القراءة**» أو قال: «**في الصلاة**»(١).

فإذا كان التشويش على المصلي بالقرآن لا يجوز، فكيف بأصوات المعازف المحرمة، التي دخلت مساجدنا في الهواتف المحمولة؟! وقد قال النبي ﷺ: «**ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف**»(٢).

كذلك: رفع الصوت في المسجد بالجدال والخصومات لا يجوز.

ومن ذلك: ما يفعله البعض من تشغيل المذياع (الراديو) قبل صلاة الجمعة، وهذا -أيضًا- يحول بين المصلين والخشوع، لمن يتنفل قبل الجمعة، أو يقرأ القرآن.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٧٩-٤٨٠).
(٢) رواه أبو داود (١٣٣٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح أبي داود» (١١٨٣).

كذلك رفع الصوت بالقرآن في سرادقات العزاء، فضلاً عن أنها بدعة؛ لأنها اجتماعٌ على العزاء، والصحابة كانوا يعدون الاجتماع على العزاء من النياحة[١]، فضلاً عما يوجد بداخل هذه السرادقات من شرب الدخان، وكذلك تؤدي إلى تعطيل الطريق أحيانًا، وإزعاج المرضى والطلاب أثناء مذاكرتهم.

ومن ذلك أيضًا: رفع الصوت بآلات التنبيه في السيارات، مثل ما يحدث أثناء مرور مواكب الأفراح.

وأسوأ ذلك وأقبحه: رفع الصوت بالغناء، من الذين يبيعون أشرطة الغناء، ويتجولون بأجهزة التسجيل في الطرقات، فهم قد جمعوا بين عدة منكرات: من استماع الغناء، والصد عن سبيل الله به، والجهر بالمعصية، ورفع الصوت، والتكسب من الحرام، والتشويش على المصلين وطلبة العلم وقراء القرآن. نسأل الله لهم الهداية.

كذلك من سوء الأدب: أن يرفع الابن صوته وهو يكلم أباه أو أمه، فهذا من العقوق، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ

(١) علقه البخاري في «صحيحه» (٥٥٩٠) بصيغة الجزم محتجًا به –كما قال العلامة الألباني في «تحريم آلات الطرب»–، وصححه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (٩١).

وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

كذلك: رفع الصوت من الصغير حين يتحدث مع من هو أكبر منه، قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»[١].

كذلك: رفع الصوت أثناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله –في غير الخطبة– قد يؤدي إلى نفور الناس من الداعي إلى الله، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

كذلك من الأمور المنكرة: رفع الصوت أثناء الحديث مع العلماء في مجالس العلم أو غيرها، فهذا –أيضًا– من سوء الأدب معهم؛ للحديث السابق.

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣) من حديث عبادة بن الصامت رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُ، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

الفهرس

المقدمة ٣
لقمان الحكيم ٨
بين لقمان وابنه ١٩
الوصية بالوالدين ٤٩
اتباع سبيل المؤمنين ٦٤
التربية على المراقبة ٦٨
يا بني أقم الصلاة ٧٣
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨١
النهي عن الأخلاق المذمومة ٩١
التربية على الخلق الحميد ١٠٥

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ١١٢٠٠٠٤٦٤٦